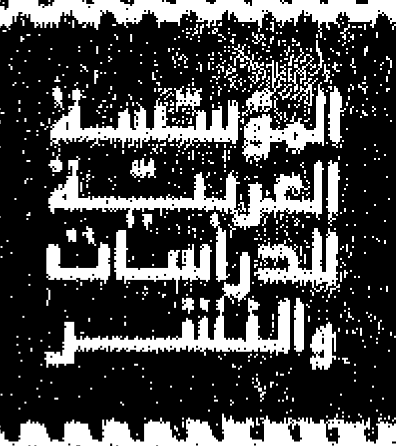


سلسلة أعلام الفكر العالمي





8

سانت اكزوبري

تأليف: جان كلودايبيرّ   ترجمة: موريس أ. شربل

سانت اكزوپري

سلسلة أعلام الفكر العالمي

سانت اكزوبري

تأليف: جان كلود ايبير

ترجمة: موريس أ. شربل

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً: موكيالي . بيروت . ص.ب ١١٢٠٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الاولى
١٤٠١هـ = ١٩٨١م

إلى القارئ

يأتي اندريه جيد في إحدى صفحات يومياتـه على ذكـر الرواية التي سردها على مسمعه انطوان دي سانت اكـزوبري حول الحادث الخطير الذي وقع له في «غيوميه» أثناء طيرانـه المأسوي عبر جبال الكورديليار، وقد خلص جيد إلى القول: «أهمّ ما ينقص أدبنا المعاصر هو البطولة»[1]. وفي ظن جيد أن أعمال اكزوبري الأدبية تأتي لتسد هذا النقص. وقد جـاءت الأيام تؤكد هذا الظن، لكن البطولة التي اختار سانت اكزوبري أن يكون رسولاً لها تتباين في معناها عما يعرفه الناس عامة.

لم يكن يدور في خلد الكاتب - الطيار عرض الرحلات التي كان يقوم بها يومياً هو ورفاقه في الطيران ليطلع منها بدرس في الفضيلة والشجاعة او ليمجّد كبرياء أو تواضع الرواد الذين وضعوا حياتهم في مهب الـريح قهـراً للموت وتـرويضاً لـه، اخلاصاً للمهمة التي انتدبوا لتحقيقها مهما غلت التضحيات. إن مهمة اخرى اخذها الكاتب على عـاتقه هي تحـديد الانسـان

(١) اندريه جيد - يوميات اندريه جيد، ص١٠٤٢ / ٣١ اذار ١٩٣١ (الطبعة الفرنسية).

انطلاقاً من كرامته وكبريائه، بعزل القوى التي تغذي شهواته، في جوار صرح الخلد الذي تأسست عليه ذريته. الجزم بأن الانسان، من حيث هو مقياس مشترك بين الشعوب ومن حيث شمولية حقيقته ومصيره وبتقدمه كضحية كبرى عن طريق العطاء من ذاته الذي يعتبر الفعل الأساسي؛ والتضحية التي تتعلق بها سلامة الأفراد، ذلك كله هو الهدف الأول الذي يجب الوصول إليه. ويعتقد سانت اكزوبري انه لا يعتبر أحداً أنه الملهم الحقيقي لمغامرته الخاصة. فكل فرد مسؤول عن الآخرين وعن صلات القربى الالهية التي توحّد ما بين الناس. علينا جميعاً أن نعي دورنا: «عند ذلك فقط نستطيع العيش بسلام والموت بسلام، لأن ما يعطي معنى للحياة يعطي معنى للموت أيضاً»[1].

وكبطل أصيل، لم يشأ سانت اكزوبري ابداً أن يرى الناس فيه الرمز الصادق لتلك البطولة التي تقدمها الشعوب كنموذج لأبنائها وجنودها. ويبدو أن أمنيته الوحيدة كانت في، ألا ينخدع الناس بمعنى الحب الذي يكنه لهم. لذلك سوف لن نشدد، خلال هذا البحث على فعاليته كطيار أو كمناضل بقدر ما نشدد على محتوى إنتاجه الكبير الذي نتناوله من منظار مزدوج أخلاقي وأدبي، دون أن نشوه الغايات التي يحملها هذا الانتاج

(١) سانت اكزوبري - أرض الرجال ص٢١.

بين طياته. ففي كتابه «أرض الرجال» كتب سانت اكزوبري يقول: «لكوننا مرتبطين باخواننا في الانسانية بهدف مشترك يقع خارج ذواتنا لذلك فقط نتنفس ملء صدورنا وتظهر لنا الخبرة أن الحب ليس في أن نتبادل النظرات بل النظر معاً في اتجاه واحد».

وقبل القول؛ إن القارئ لا يعجب فحسب بل يعشق مؤلف «الأمير الصغير» ويرغب تمام الرغبة بأن يدخل في ذهنه هذه المقولة لأنها تربط مختلف المواضيع التي لا تنفك تتكرر على امتداد هذه الدراسة التي حاولنا فيها أن نقول كيف أن أخلاقية للعمل بوسعها أن تؤدي إلى إيمان بالانسان.

جان كلود ايبير

التسلسل التاريخي لحياة انطوان دي سانت اكزوپري

٢٩ حزيران ١٩٠٠ -	ولد انطوان ماري - روجيه دي سانت اكزوبري في ليون. والده مفتش للتأمين في الرون. وهو الابن الثالث لعائلة شريفة من أصل ليموزي.
١٩٠٤ -	تابع دروساً تحضيرية في مدرسة مون سانت بارتلمي المسيحية.
تشرين الأول ١٩٠٩ -	دخل ثانوية سيدتنا سانت كروا في مانس عند اليسوعيين.
١٩١٢ -	كانت معمودية الهواء الأولى في مطار اميريو مع الطيار ڤيدرين.
تشرين الأول ١٩١٤ -١٩١٦	أكمل الدراسة في ثانوية سانت جان في فريبوغ (سويسرا) عند الأخوة المريميين.
١٩١٧ -١٩١٩	توفي اخوه الثاني فرنسوا. دخل مدرسة بوسيه مرشحاً للبكالوريا، ومن ثم طالب داخلي في

الليسه سانت لـويس في باريس حيث حضّـر المركزية والبحرية معاً.

حزيران ١٩١٩	رسب في البحرية.
١٩٢٠ -	تـرك المباريـات الكبرى لكي يـدخل مـدرسة الفنون الجميلة في اختصاص الهندسة المعمارية.
١٩٢١ -	قام بالخدمة العسكرية مع الفوج الثاني للطيران في ستراسبورغ حيث ألحق بعمـل التصليح. حصل على شهادة الطيران المدني والعسكري. ثم أرسل الى الدار البيضاء كتلميذ ضابط.
١٩٢٢ -	رُقِّيَ الى معاون ضابط احتياط في بورجيه.
كانون الثاني ١٩٢٣ -	وقوع حادث بورجيه في الطائرة (سبب له تشققاً في الجمجمة).
اذار ١٩٢٣ - ١٩٢٦ -	سُرِّح من الخدمة. عمل كمراقب في صناعـة القـرميد في بـوارون، عمـل بعـدهـا كممثـل لشاحنات سورير في الحفر. كتب قصة صغيرة «الطيار» نشرت في سفينة الفضة: مجلة لادرين مونيه.
تشرين الأول ١٩٢٦ -	التحق بالشركة العامة للمشاريع الطيرانية (التي أسسها م. لاتيكور سنة ١٩٢١).

١٩٢٧ -١٩٢٨ خط الطيران. قام بتأمين البريد بين تولوز والدار البيضاء وداكار - والصحراء. رقي الى رئيس مركز الطيران في جوبي. هنا كتب ونشر «بريد الجنوب».

١٩٢٩ - عاد الى باريس ومنها الى بريست حيث تابع الدروس الخاصة بالملاحة الجوية فوق البحار. بعد حصوله على الدبلوم أبحر في تشرين الأول الى بيونس ايرس عاد بعدها الى وظيفة النقل البريدي حيث استحدث خطاً جديداً للطيران في اميركا الجنوبية ومن ثم شغل وظيفة مدير نقل «البريد الجوي الأرجنتيني».

حزيران ١٩٣٠ وقوع حادث غويوميه في الكورديليار الذي رواه بالتفصيل في «أرض الرجال». بدأ بكتابة «طيران الليل».

١٩٣١ -١٩٣٣ التصفية القضائية لشركة الطيران البريدي. تزوج سانت اكزوبري من السيدة كونسيليو سانس. نشر «طيران الليل» فاستحق عليه جائزة فيمينا ١٩٣١. أمّن خلال ستة اشهر البريد بين فرنسا وأميركا الجنوبية - لاقى صعوبات مادية. عمل كطيار عند لاتيكور في وسط فرنسا

حيث جرّب الطيران المائي. وقع له حادث في خليج سانت رافايل.

١٩٣٤ -١٩٣٥ ألحق في شركة الطيران الفرنسية في قسم الدعاية. قام برحلات وألقى محاضرات في فرنسا وافريقيا الشمالية والهند الصينية. أرسل الى موسكو لوضع تحقيق صحفي لصالح جريدة «باريس المساء». ومن ثم عمل على خط رايد - باريس - سايغون وتوقف عن العمل بسبب حادث وقع له في الصحراء على بعد ٢٠٠ كلم من القاهرة.

١٩٣٦ - أرسل الى اسبانيا لوضع تقرير صحفي لصالح جريدة «المتصلب» عن الثورة التي اندلعت هناك انذاك. استخلص من «بريد الجنوب» سيناريو فيلم.

١٩٣٧ - قام باتصال مباشر بين الدار البيضاء وتومبكتو. صعوبات مادية. كتب سيناريو لفيلم (آن - ماري). سافر الى المانيا.

١٩٣٨ - قام بحملة الى نيويورك وأرض النار على ريح السموم. فتعرض لحادث في غواتمالا (سبب له

سبـع تشققـات في الجمجمـة). حضَّر «أرض الرجال».

كانون الثاني – تموز ١٩٣٩	نشر «أرض الرجال» (فنال الجائزة الكبرى للقصة من الأكاديمية الفرنسية). سافر إلى ألمانيا ومن ثم الى الولايات المتحدة الاميركية.
٤ أيلول ١٩٣٩	تجنَّد كطيار لتأمين الخدمة بين تولوز ومونتودران.
٣ تشرين الثاني ١٩٣٩ –	التحق بالفريق ٢/٣٣ للاستكشافات الكبرى في اورونت.
أيار – حزيران ١٩٤٠ –	بعد القيام بمهمات بطوليـة انسحب قسم من الفريق ٢/٣٣ الى الجزائر.
آب ١٩٤٠ –	ترك سانت اكزوبري الجزائر ليعود الى فرنسا حيث سُرِّح من الوظيفة. ذهب الى فيشي ثم الى باريس.
خريف ١٩٤٠	ذهب الى البرتغال حيث سمع بنبأ وفاة صديقه غويومِيه (٢٧ تشرين الثـاني) ومنها أبحـر الى نيويورك.
١٩٤١ – اذار ١٩٤٣ –	قام برحلات ضمن الولايات المتحدة. ظهر في فرنسا وفي الولايات المتحدة معاً كتـاب «طيار

الحرب». أبحر بعد ذلك الى افريقيا الشمالية. ونشر «رسالة الى رهينة».

نيسان ١٩٤٣ في الوقت الذي كان فيه «الأمير الصغير» يوزَّع في مكتبات نيويورك، كان سانت اكزوبري في الجزائر حيث انضم الى الفرق الفرنسية في لاغوت (الجزائر).

ايار ١٩٤٣ عاد والتقى الفريق ٢/٣٣ في اوغادا. لكنه وجد ألف صعوبة لاعادة اعتباره كطيار خاصة بسبب كبر سنه. بدأ التدريب على طائرات حديثة (Lightning).

تموز ١٩٤٣ قام بتنفيذ اولى المهمات رغم الجهود التي بذلها القائد لمنعه من الطيران. عاد الى كتابة «القلعة» بعد ان كان قد بدأ العمل فيه منذ سبع سنوات.

١٩٤٤ - انتقل الى نابولي ومنها إلى سردينيا واستقر أخيراً في كورسيكا مع فريقه في مهبط بورجو. رُقي الى رتبة قائد ولم يبق عليه سوى القيام بخمس مهمات، فنفذ ثمانية.

٣١ تموز ١٩٤٤ في المهمة التاسعة لم يعد سانت اكزوبري الى

قاعدته. فبينما هو عائد فوق منطقة اناسي قتل في «فوك ووف» عندما كان فوق متسع من كورسيكا نحو الساعة ١٣,٣٠.

١٩٤٠ - نُشر كتاب «القلعة».

حضور الانسان

«أجل، لأنك تتقبل الموت، لهذا فقط أنت جدير بالحياة»(١)

إذا أردنا أن نتصور انطوان دي سانت أكزوبري طفلاً، علينا أن نراه من خلال «الأمير الصغير»، أشقر ذا شعر مجعّد، يحاول اكتشاف العالم بكل تعجب، مسرور باستكشاف الأملاك الواسعة التي تمتلكها عائلته في سانت موريس دي رِمنس في آين (Ain). ومن ثم يافعاً صاخباً لعوباً، مليئاً بالحياة، توحي ملامحه بالذكاء والاحساس، لا يفكر كثيراً لكنه رصين عندما يتكلم عن أبحاثه وعن مشاريعه المستقبلية، حالم، متحرر نزوي، تشده حرية خاصة لا تمنعه عن الواجب التربوي وواجب العمـل. كتبَ أشعاره الأولى منذ دخوله معترك الحياة مبتدعاً عالماً خاصاً لأحلامه، ومن ثم خصصَ جزءاً من أوقات استراحته لاكتشاف وسائل جديدة للنقل، مثلاً دراجة شراعية. لقد وهبه الله قدرة نادرة على التركيز ساعدته كثيراً في مهنته كربان طائرة. لا يمكن أن يفوته أي تفصيل جزئي: فهو يعرف كيف يربط العلاقات بين ما يراه وما يشعر به، ويضفي على كل ذلك معنى إنسانياً

(١) القلعة ص. ١٨٠.

رفيع المستوى. متحمّس لكل عمل يباشره، متهوّس بأحاسيسه، يحتاج- للحنان -هذا الحنان الذي لم تتوقف أم رائعة عن إحاطته به- لكن لا بد أن نجد عنده بعض الخشونة التي ترتكز على احترام السلطة. بعدئذ عندما تعلم عند الاخوة المريميين في فريبورغ تنبه إلى مسؤوليته الشخصية فتساءل حول مشكلة وجود الله والدين. إذ لمْ ينج من قلق الميتافيزيقيا ومن الخوف من العدم، فهو لم يصب على الأقل بشكوكية الفتيان، بل حملته حياته الداخلية على الايمان أكثر من نفيه، مع الرغبة في الاقتناع بنفسه بجمال هذا الوجود ذي المصدر الالهي. شاعر للنفس، ساحر ديبلوماسي، رائد العالم الحديث، منتصر بشكل خاص للانسان.

وفي مرحلة بلوغه لم يكن يبدو «كشخصية كبيرة» متمسكة بقدراتها وواثقة من أهميتها، بل بدا كمراهق بلغ النضج في التفكير قبل أوانه، حماسي ومفكّر معاً، عنيف ومتسامح. وبدون شك كان لقوامه أثر (١,٨٤م) وكذلك لمنكبيه الواسعين اللذين يعلوهما رأس ضخم شبه مستدير. بشكله العام كان يوحي وكأنه صخرة من شاطئ بريتون تجابه العواصف، أما نظره الثاقب المضحك أحياناً والحاقد أحياناً أخرى، فتنيره شعلة من الذكاء دائمة اليقظة، تنم دائماً عن صراحة طبيعية لكنها جذابة، كما أنه يوحي للذين يعاشرونه ثقة بلا حدود. يفتح قلبه بايجاز عندما يحاول أحدهم التحدث عنه شخصياً -لا يلجأ للأسرار إلاّ مع

بعض الأصدقاء المتأكد منهم وبالعكس يبدو سهل المعاشرة ومرحاً عندما نسأله عن رفاقه، أو عن الطيران، أو عن الأنواع التي تهمه (موسيقى، فلسفة علوم فيزيائية، رياضيات، بيولوجيا، علم الكواكب... إلخ). متكامل في أحكامه لا يجب أن يعارضه أحد حتى ولو كانت الاعتراضات التي تجابهه رصينة، وذات أهمية. يريد الحصول على امتياز في حل التناقضات التي تنكشف في برهان يكون قد فكّر فيه ملياً. لا يوجد مخلوق يملك شهامة تقابل شهامته. أما أمانته في الصداقة وطيبته ونزاهته كلها، فتعتبر فعلاً نموذجية. فكل من أقام علاقة معه، مهما كانت مدة هذه العلاقة قصيرة، يدرك مدى قدرة الافتتان التي يمليها على محيطه.

فصفاته كرجل إذن، هي نادرة. فما هي قيمته بوصفه طياراً؟ يذكر، بعض من الذين يكتبون سير الحياة، فرحه ونزوته للشجاعة عند الهبوط أو الاقلاع، إلا أن رفاقه الطيارين يعترفون بلباقته وعناده ودقة ردود فعله وسرعتها. ومن ناحية أخرى حضور ذهنه المعروف في «الصدمات الصعبة». سأل الدكتور جورج باليسيه حول هذا الموضوع القائد جافوال الذي كان رئيس الفرقة سنة ١٩٤٣ -١٩٤٤ التي كان ينتمي إليها سانت أكزوبري فأجابه هذا: «إن سانت أكزوبري طيار رائع لبق للغاية، يقع أحياناً ببعض الأخطاء الصغيرة، فهو لا يعتبر الطيران تسلية (بل بالعكس هو كثير التوسوس رغم خبرته

الكافية تراه يلهو على الأرض، في الوقت الذي تكون تعطيه فيه بعض التوضيحات!)[1] هذا الدليل يقنع كل المشككين.

ما هي الصورة التي تبقى لنا من هذا الرجل الذي كافح من أجل السماء ومن أجل الأرض؟ فإذا دخل التاريخ كمحارب منتصر على كل خلاف، ألا ينتمي للأسطورة عندما يحمل مهمة سلام مندفعاً على مركب «يعيد للحقيقة أولئك الذين أضلهم الخطأ؟» لكن استمرارية إنتاجه تظهر، بدون شك، انه ينتمي إلى عصرنا وانه أكثر حضوراً من الماضي وأكثر فتوة من مدة عشرين سنة، رغم أنه لم يتوقف يوماً عن النمو والتراث الذي تركه للناس هو بحد ذاته أكثر قيمة من مجموعة الذكريات المتعلق بها مباشرة.

لا يُعتبر سانت أكزوبري كاتباً لقضية. ولم تُفسد تفكيره مطلقاً هموم البرهنة العزيزة على قلوب رجال المنطق. بالنسبة إليه، لا حاجة للتدليل على حقيقة الشيء: فالحقيقة تفلت عند أول تدقيق بالاستدلال ولا يمكن التقاطها إلاّ بواسطة طريقة المقارنات المتتابعة أو بالتماثل المتقارب تدريجياً. ليس هناك حقائق إلاّ بالمقارنة ذلك لأن كل شيء يتعلق بغيره ويخضع لمجموعة أنظمة كما يشترك في تنظيم بنيات ينبغي اعتبارها بشكل

---

(١) الوجوه الخمسة لسانت أكزوبري ـ ج. باليسيه (منشورات فلاماريون).

كلي، ولا يكون له فعالية إلّا إذا فُرض علينا بمجمله. وهكذا كل ما يحتفظ به سانت أكزوبري من اقتراحات فلسفية عديدة كإخضاع الخاص للعام أو تسامي الكائن وصيرورته أو عن كل ما يمكن أن يعطي معنى للخير والشر أو للوجود وللعدم. كل ذلك يأخذ أيضاً شكل الوضوح (وضوح يستلزم هنا التأكيد). لهذا يجب ألا نتعجب إذا انطلق هذا الأديب من الاثباتات فقط. ألم تكن حياته إشهاراً لاحدى أهم إثباتاته: هيمنة الانسان على الفرد؟ «إنني أصارع من أجل الانسان ضد أعدائه، ولكن ضد نفسي أيضاً» كتب عندما أعلن عقيدته البليغة الأثر ببساطة ومروءة الشعور الذي يستوحي منه. هذه الحاجة للتأكيد والبناء، هذه الرغبة في الذهاب مباشرة إلى الهدف وتوضيح ما يبدو أكثر تعقيداً وأكثر غموضاً، أصبح بالنسبة إلى سانت أكزوبري قاعدة سلوك وعمل. وهكذا نجد في الانسان كما نجد في المخلوق الذكاء نفسه والدقة نفسها والبحث نفسه عن العقدة الأساسية لمختلف الأفعال التي لا تظهر إلّا من خلال وضوح حاجتنا لها.

داخل الشك سانت أكزوبري من الذرائع التي يمتهنها الأدب. لقد حارب دائماً مرض الأديب هذا الذي يسعى إلى زخرفة قصة باستدعاءات متحذلقة تثير مخيلة القارئ، لكنها تخذل أصالة الأحداث تحت غطاء القصص المحتملة. ففي

إحدى مقاطع «طيار الحرب» يشبِّه تكاثف الغيوم الذي ينسحب وراء طائرته في أوج طيرانها بلباس ذي رفل من نجوم الثلج. تعتبر الصورة مقبولة بحد ذاتها لأنه اكتشفها بدون تقزّز. ولا يزال معذباً لكونه استسلم لنزعة الشعر الرخيص. كان ذلك خطأ ينبغي رميه خارجاً، انظر كيف يتم بلوغ الوضعية. فهو يعاني من كره حقيقي لكل ما هو موقف. فقد تعرّض للموت غالباً لأنه لا يتساءل كيف يجب أن نتصرف حياله. فكل مرة كان يصادفه في طريقه لا يبالي به بل يهتم بالخبرة الجديدة التي يمكنها أن تغني تفكيره حول المعنى الجديد الذي يجب أن يعطيه لهذا الموت هذا التعلق بالحياة هو ما يدهش هذا المخلوق الذي اختار عدم الاهتمام بالموت إلّا بقدر ما هو مشاركة وحب، عظمة وشقاء.

إذا انكب على سحر العالم، أو تأمل في فساد شعب أو أراد قلب الأحداث، باتخاذ موقف ناشط منها تعزيز التاريخ بتطبيق قوانين جديدة عليه كان يجهلها سابقاً فهو يعتمد غزو الانسان في شمولية وعيه، الانسان الذي يحمل في داخله ما هو أكبر منه[1].

بالمقابلة، يبدو وجه سانت أكزوبري غريباً بالنسبة لتحديده الانسان، فربما يكون وجود هذا الشيء المتعالي في شخصيته قد

(١) القلعة ص. ١٩٤.

أتاح له إدراك علم للأخلاق مبني على مبادئ الاحترام والورع.

إن القيام باختيار صريح في تراث سانت أكزوبري لهو عمل تعسفي. رغم أن لكل كتاب معناه الخاص، فالقضايا المعالجة فيها تتصل ببعضها بقوة بحيث يبدو للوهلة الأولى أنه من غير الممكن تحليلها بانفصال، لكن من الخطأ ألا نعتبرها ضمن إطار تطور فكري حيث نلاحظ المنيهات المختلفة لتقدم متصاعد نحو هدف محدّد.

كل فكرة عند سانت أكزوبري تتوافق مع حاجة إعلاء متماثلة مع هذا الجوع للعلم والمعرفة الذي يأمر «فابيان» بالصعود نحو النجوم. للتوصل إلى الله انطلاقاً من الانسان، عليه أولاً أن ينقب الكوكب الذي يقطنه، يحفر الحقل الذي تنبت فيه البذور وأن تحصي الثروات المدفونة فيه، وأن يرى أي حصاد نستطيع جمعه. وعندما يصبح متأكداً من صلابة الأرض عندها يبني قلعته كي يدافع عن الكنز الذي اكتشفه. عليه أن يعمل كرائد وهو مؤمن بأن العالم يبدأ كل يوم بالنسبة للعامل الذي يباشر ببناء العالم، فتكون أداته الطائرة وسلاحه الحب.

من الطبيعي، قبل أن يتصرف بفعالية، أن يلتفت ناحية أداته وسلاحه كي يتعرف كيف ينبغي استخدام كل منهما. وعما قليل سيرى أن استخدامهما سيقوده إلى تعلم مهنة، إلى أسلوب

للحياة، أخيراً إلى تعلّم كيفية ضبط اتجاه مغامراته. ففي أغلبية كتاباته لا يعمل سانت أكزوبري إلا على إفهامنا هذا التعلّم الأساسي المزدوج: معرفة المخلوقات والأشياء. لهذا السبب نصبح مسوقين للتمييز في تراثه بين قضيتين بارزتين: العمل كوسيلة تفوق على الذات والايمان بكونه انفعال من شأنه أن يبلبل معطيات الضمير. ونشير أيضاً إلى أن سانت أكزوبري لا يفرّق أبداً الفكرة عن العمل وان إرادة العمل ليست سوى تحقيق الرغبة في الاعتقاد.

أخلاقية العمل

«تعلمنا الأرض على مدى طويل[1] أكثر
من كل الكتب لأنها تقاومنا»

إذا اختار سانت اكزوبري العمل ذلك لأنه اعتقد اعتقاداً راسخاً بأن على الانسان كي يثبت وجوده بشن حرب قد يكون منطلقها سيئاً عليه. هناك الفردية التي تسيطر دائماً على الانسان، هذه الناحية من الذات ترفض الالتحام مع الجماعة وتتمرّد عندما تُفرض عليها أنظمة تضرُّ بمصالحها وتحد من طموحاتها. لكن سانت اكزوبري يرفض مذهب الفردية لأنه يؤدي إلى الانحطاط. فالغصن المقطوع من الشجرة أو المبعد عن النسغ لا يمكنه أن يحيا. والانسان مهدد دائماً بإفساد نوعه إذا لم يتخلّص من هذا العائق المزدوج والمضر.

فمهمة الانسان الأولى تكمن في إزالة كل ما يساعد على تعزيز أنانيته. والشر هو دائماً فينا، لا يظهر دائماً إنما من الصعب التخلّص منه. لذلك يجب تداركه. والعلاج الوحيد الذي اقترحه سانت اكزوبري هو العمل الذي يدفع الفرد للسيطرة

(١) أرض الرجال، ص٩٠.

على نفسه[1]. إن قيمة كل مسعى من مساعينا تتناسب مع الجهد الذي علينا أن نبذله للخروج من ذواتنا. وهكذا فتصرفاتنا تعني أن نتجاوز شيئاً ما وأن نصارع قوى متناقضة وننتصر على مقاومة معينة، لكن هذا يهيب بنا أن ننسى أنفسنا ونقدمها بلا قيد وأن نتعهد بقلب قوي لا يستطيع أحد أن يكدره في طلب النزاهة. عندئذ نصبح منيعين، مثل فريق المنتصرين الذي أوصله سانت اكزوبري إلى ما فوق الهزيمة، والذي يرسم لنا ملحمته قائد الحرب.

وقد أعلن في «بريد الجنوب» هذا المفهوم قبل ذلك، لكنه لم يظهر فيه إلاّ بشكل رسم أولي. فرغم أن المؤلف تبنى لهذا الكتاب الشكل القصصي إلاّ أن التجربة التي سُردت فيه لا تصلح كعقدة أو كمغامرة. فالمهم هنا هو احتكاك الانسان مع أرضه. فاكتشاف عالم جديد يوحي بالأمل كما يوحي بالعزلة. فالطيار يدرك عالمه وهو مدفوع في فضاء يزين أبعاده بوجوده. تبدو الأرض من فوق عارية وميتة، لكن عندما تهبط الطائرة تتجهّز ويتسارع مجرى الأشياء. ونقاط الاستدلال لا تبقى دائماً هي ذاتها. ومما لا شك فيه أن هناك نقاط استدلال مثل البحر والجبال والمدن والأنهر وأدوات الشاطئ، كلها تساعد الطيار على تحديد موقعه. لكن كيف يعتمد على الأرقام

(1) قائد الحرب، ص٢٢١.

والحسابات أو على تعليمات الجغرافية؟ لا يوجد على الأرض إلاّ أفكار مجمّدة وتصورات مجردة. من الأفضل كثيراً أن نلتقي في طريقنا بمزارعة متفرغة لأعمالها أو بخراف عائدة إلى الحظيـرة قرب جدول ماء وقرب شجيرات الليمون الثلاث.. تلك هي مؤشرات حية ترشدك، أجـل هنا حيث تتـواجد هـذه الأدلة تكتشف الملاجئ والكمائن التي لا توضحها أية خريطة.

هكذا يبدأ جاك برنيس، بطل القصة، مغامرته. يفتش عن أثر الانسان فيعمل كطيار على خط تجاري، وينقل البريد. بريد أثمن من الحياة. ما العمل حيال حياة ثلاثـين ألفاً من العشاق. فخلال الطيران لا يشعر أنه يملك نفسه أبداً. إنـه يشعر بمسؤوليته عن الآخـرين ويعتبر نفسـه مركـز العلاقـات البشرية. كم من الأفراح وكم من المآسي ترتبط به! فهو لا يفكر بالسلطان المعطى له. كل تصوره يكمن في إيصال البريد، وتلك هي حجته بأن عليه ألاّ يموت. لكن عندما يذهب الطيار لإتمام مهمته، يترك وراءه أكثر من وجه من الذكريات، وخلال غيابه، تُغيِّر موجات غير متوقعة دورة طيرانه وعندما يعود إلى مينائه يرى أن الناس والأشياء كلها تطورت دون أن يعي لماذا؟

يعود برنيس ليلتقي صديقة الطفولة جنفياف: زوجة شقية أضاعت ابنها المدلل، فأحبها لأنه يئس من إمكانيته في بلوغ هذه المرأة في روحها وجسدها. لكن كثافة معينة منعتهما من الالتقاء.

ماذا تخبئ هذه الكثافة؟ لم يكن عند برنيس الوقت الكافي لاكتشافها. أخيراً تموت جنفياف ويختفي برنيس في الصحراء. لكن البريد يصل بشكل جيد.

إن نموذج الانسان الذي يصفه سانت اكزوبري في «بريد الجنوب» هو أيضاً جَروح. فحنانه ومناجاته وحنينه إلى الوطن وتسامحه وفشله في الحب، كل ذلك له صدى فردي.

في «طيران الليل» القصة الثانية عند سانت اكزوبري، يتحدد نموذج الانسان بشكل أفضل في شخصية ريفير[1]. ريفير هو رئيس الخط الجوي في أميركا الجنوبية، فهو الذي يأمر ويطلب المستحيل ليخدم قضية لا تفوت قيمتها أولئك الذين قبلوا الانصياع له. إن ريفير هو الشخص الذي يُعد الرجال ويُبعد النقائص بمزيد من المحبة. المهم في رأيه هو الصمود والخلق وتغيير جسده البائد. سيرسخ هذا المفهوم للعمل في ذهن طياريه. وفكّر ريفير: «إذا لم يكن لحياة الانسان معنى، فنحن نتصرف دائماً وكأن شيئاً ما قد تجاوز الحياة الإنسانية قيمة...»[2] ما هو الحافز الذي ندعيه كي نقرّ هذا التحدي للسعادة على الأرض؟ هناك الخلود، وغزو المطلق والانتصار على

---

(١) استوحى سانت اكزوبري من السيد ديديه - دورات رئيسه في البريد الجوي، كي يركّز شخصه.

(٢) ص١٢٥.

الخوف من الموت والبحث عن الألوهة. والإجابة عنها كلها لا ترضي سانت اكزوبري مطلقاً. يمنح ريفيير نفساً للمادة البشرية غير مبالٍ بالعدالة والظلم، ويزداد تأصلاً بتهذيب الارادات. إذا لم يتم استقبال هذه الهبة بعرفان للجميل تصبح غير مفيدة.

البطل الثاني للكتاب «فابيان» أحد طياري الخط التجاري، وهو من الذين يتلقون الأوامر وينفذونها، أي انهم المظهر الآخر للنموذج. منذ دخول «فابيان» في الليل أدرك أن عليه أن يدافع عن قضية الطيران في الليل: ففي حال وقوع خسارة كبيرة في المعدات يعني ذلك وقوع الهزيمة. فمهمته الأساسية تنحصر في إيصال البريد إلى هدفه مهما كلّف الأمر. أقلع بعد أن أصبح مثقلاً بالتعليمات التي تلقاها. وها هو يندفع خارج نفسه. بعد أن اكتشف أنه جالس بمتانة في السماء بدأ تأملاً عميقاً في الطيران حيث يتذوق رجاءً يتعذر شرحه. إذا لم يحس بدوران أو بسكر، فهو يشعر بالعمل السحري للشهوة الحية. إنه حاضر لبلوغ الكمال والاستقرار في سلام لا يستحقه حتى الآن. بالنسبة للوقت الراهن، ليس الخطر سوى تأمل وهو لا يخيفه. فالوقت محدد ببضع ساعات نسبة للوقود الموجود في خزان الطائرة. أين حريته طالما أنه خاضع لمتطلبات آلته؟ ليس عنده الوقت الكافي للتفكير بذلك. فهو يراقب عداداته. أعلنت عاصفة عن وصولها. اختفت أضواء القرى والمنازل المنعزلة تحته.

وفوق رأسه تقلّص مجال النور. وها هو أسير هاوية مظلمة. يجابه كل العناصر بأعصاب متوترة. يتمنى لو أن بإمكانه أن يتغذى بالأضواء التي أصبحت تترجرج. يغوص في العاصفة ويغرق في رواسب الأعماق المظلمة. فهو تجاه الطبيعة ليس سوى دمية مسحوقة بالمطر والثلج والعواصف، ولا يدري شيئاً. إنها البرهة التي تقود الانسان نحو الأخطاء مثل الدوران. يجب الهبوط والاقتراب من الأرض. لكن السماء تمزقت فجأة وظهرت النجمة الأولى كمنارة وهي نوع من المناداة من فوق تدعوك للصعود دائمًا عالياً. ولم يقاوم «فابيان» التجربة فارتفع عالياً وترك الزوبعة. ولم يبق عنده صعوبات يجتازها الآن واستسلم لجمال المشهد الذي يطمئن الفريق لكنه ينهكه ويدينه. تلك هي المأساة التي ينتظرها الطيار. وعندما يتوصل إلى الخلاص من الموت يرى أنه لم يربح إلاّ عملية إرجاء. فكل وجوده مبني على هذا الأجل. فكتاب «طيران الليل» هو قصة فشل، لكن هذا الفشل لا ينقص شيئاً من صفة الزهد عند «فابيان».

يروي سانت اكزوبري في كتابه «أرض الرجال» أن «غويوميه» قرّر عندما وقع له حادث في الأندس، النزول من القمم العالية حيث تحطمت آلته حتى يتسنى له رؤية جسده ذلك لأن زوجته لا يمكنها قبض بوليصة التأمين إلا إذا كان هناك أدلة واضحة على موته. بقيّ خلال خمسة أيام وخمس ليالٍ يصارع البرد والنعاس والخمول والجوع. وخلال سيره على

الطريق كان يفكر دائمًا قائلاً: «كم أنا قذر إذا لم أسير، لأن زوجته ورفاقه وكل الذين يثقون به يعتقدون أنه سيسير إذا كان على قيد الحياة.. وكان واجبه الأساسي عدم خيانة هذه الثقة. وعندما يصبح بحضور صديقه سانت اكزوبري سيبوح له بذلك قائلاً: أستحلفك بأن تثق أن العمل الذي قمت به لا يقوم به أي حيوان. وسيؤكد سانت اكزوبري: «إن هذه الجمله هي أشرف جملة عرفتها، إنها الجملة التي تحدد موقع الانسان.. الذي يعيد تأسيس القيم الحقيقية». وهكذا حدَّد غويوميه الانسان بفخر مدهش.

أسس المخلوقان، ريڤيير وفابيان، طبقة معينة. اعتبر غويوميه وسانت اكزوبري وبعض الطيارين الآخرين من البنية نفسها، التعبير الحي عن هذه الطبقة.

إن المطالبة بالعمل كوسيلة لتجاوز الذات يؤدي إلى إيجاد نوع من ترتيب للقيم. فالطيران بالنسبة للطيار ليس سوى تدريب على مذهب مقدَّس. كل فرد منا يتمم متطلبات هذا المذهب عندما يمارس مهنته بوعي لمسؤوليته الفرديه ضمن لعبة القوى التي تساهم في توحيد العالم. إن عمل المزارع يصبح باطلاً إذا لم يكن ينطوي على نية أسمى من عملية إنبات القمح فقط. وهكذا الشاعر الذي يحضِّر شعره والحداد الذي يطرق قطعة الحديد والطبيب الذي يعتني بمرضاه، فهو يخون بني جنسه إذا تصرَّف فقط بهدف الاشباع الشخصي. أجل، هناك مهنة

الانسان فوق كل المهن (ربما تكون هذه دعـوة؟) وهي تبقي اكتشاف ما يجب أن نكون ونحترم ما نحن عليه معاً. وبتعبير آخر، إن العمل، حسب ما يبدو في مؤلفات سانت اكزوبري، هو صلة وصل بين مغامرتين، الأولى داخلية صرف والأخرى تتطابق مع الحاجة إلى الانعتاق والتحرر.

المغامرة الداخلية

يقدِّم لنا كل من «بريد الجنوب» و«طيران الليل» شاهداً على ذلك. ففور الانتهاء من هذين الكتابين بدت قيمتهما، للوهلة الأولى، منحصرة، على نقيض الصواب. وكانت فائدتهما وثائقية ولم يقنعا الناس دائمًا. ولا أحد اعترض على أنهما يثيران المخيلة ويحركان الشعور ويتخلصان من الضجر اليومي (هذا ما يُطلب عادة من الروائي بالاضافة إلى أسلوبه الجيد). يبرهن لنا سانت اكزوبري ان الخادم ملزم بالانصياع الى معلمه لئلا يخسر مركزه وربما كان، رغم النقص في استقلاله الذاتي، أكبر خلقاً وأكثر انتصاراً من رئيسه. إنه دور الجندي في زمن الحرب. إنها اللعبة التي يقبل بها المحارب، كما يقول روسو: «على الارادة الخاصة أن تخضع للارادة العامة وتتجسد هذه الأخيرة بشخص الرئيس». نستخلص من ذلك ما يلي: ليست الحرية للاستقلال لكنها العكس. إنها الموافقة الجماعية على الالتزام. ففي كل مرة يكون هناك التزام من الضروري أن يستطيع الفرد رفض ما يُطلب التصرف به. وهكذا تُطرح مشكلة الحرية بشكل آخر. ففي كتبه: «أرض الرجال وقائد الحرب والقلعة» يحوِّل سانت

اكزوبري هذا المفهوم للحرية بالالتزام انطلاقاً من الأسس الجديدة. فقد لاحظ أن كل التزام خارجي منظم إذا لم يستند إلى قواعد عامة يأخذ بسرعة طابعاً منهجياً: وبذلك يتحقق الحكم الفردي والامبريالية والديكتاتورية والسلطة المطلقة. ويتم الرد بأن كل فرد حرٌّ بأن يعمل عبداً. فالبرهان بالنسبة لسانت اكزوبري غير مقبول ويصبح ذلك نوعاً من نفي الذات أو إنكارها، وهذا ما يعادل الانتحار.

ينبغي تحديد الحرية بالموافقة على واجب معروف بشكل شرعي من قبل الشخص الذي يفرض عليه هذا الواجب - إنها الحرية السياسية والاجتماعية - أو فلتكن إثبات سلطة «بواسطتها يمكن أن تظهر الأعماق الفردية المتعذر بيانها ويتم الكشف عنها جزئياً في أفعاله»[1]، إنها في أساس إرادة العمل نفسه. لا عمل بلا حرية وكذلك لا حرية بلا عمل. لكن ليس بوسعنا أن نتكلم عن الحرية او عن العمل قبل ان نحدد مسبقاً موضع الانسان تجاه الكون. تبدو مسألة الحياة والموت اساسية هنا، أجل لأن فيها يكمن مبدأ قابلية الفرد على أن يكون هذا أو ذاك بين الجموع الأخرى.

ما ان يعي الانسان حقيقته حتى يرى نفسه قد ارتطم في

(١) انظر المفردات التقنية للفلسفة لالاند ص٥٦٣.

العالم وأحس بوجوده بالفعل، لا يمكنه التخلص من الشعور بالقلق؛ فالقلق هو: «هذا الوعي لمصيرنا الشخصي الذي يجذبنا في لحظة من العدم فيفتح أمامنا مستقبلاً يتقرر فيه وجودنا». فمهما فعلنا نبقى محاطين بحدين هما الحياة والموت. بالنسبة لسانت اكزوبري ينبغي ألا نتأمل في جدوى او عدم جدوى الحياة والموت او في عدم معقوليتهما، إنما يجب اعطاءهما معنى. على الفرد أن يتقبلهما كقيم أساسية عند ذلك يبدأ الشعور بوجوده. ويتم تحرره من الشعور بالفراغ الذي يستولي على الفكر عندما نحاول اختراق سر الموت. عندها عليه ان يبرز الى الوجود او ان يولد من جديد، وسانت اكزوبري يعطي لهذه الكلمة (الولادة) معنى خاصاً حيث تتداخل فكرة الجهد والقدرة المستمرة التي تهدف نحو غاية نثبتها خارجاً عنا. من فعل الولادة هذا نستوضح صفات الرجولة التي لا تتواجد فينا إلا بالقوة. يبدأ الفرد بالوجود ويصبح بإمكانه بناء مستقبله بالتفكير اولاً وانطلاقاً من الحاضر بشكل حصري:

«إن بناء المستقبل يعني بناء الحاضر. أي خلق رغبة من أجل الحاضر وتنطلق هذه الرغبة من الحاضر إلى المستقبل».(١)

تلك هي مبادئ صيرورة الفرد، مبادئ من الضروري التلاؤم معها إذا أردنا التحرر من الفردية إلى الانسانية. هناك

(١) القلعة ص٢٨٤.

إجراء موازٍ يفرض نفسه وهو: التخلي عن متعة الاملاك المادية وذلك بالسعي الى عدم التأثر بالأشياء إلا بقدر ما نلتزم بحل العقدة التي تعقّد هذه الأشياء. وبالتوصل الى هذه المرحلة نستطيع أن نصبح واعين أي أن نعانق العالم في كل شموليته ونتأمله من فوق مع التراجع المناسب والنظرة التي لا تحرِّض على الاحتمالات الخاطئة. إلى أين تؤدي هذه المغامرة التي ترتكز على غنى العلاقات التي تؤسسها وعلى المشاكل التي تطرحها والمستحدثات التي تحدثها؟ إلى معرفة المخلوق المطلق أولاً الذي تساهم في تكوينه كل الضمائر التي تحمل الشعور الانساني العالمي نفسه، ومن ثم إلى اتحاد هذا المخلوق مع الله. لكن سانت اكزوبري يتحفظ في كل مرة قائلاً: لا يمكن بلوغ الله، إنما يمكن اقتراح ذلك... وها هنا بالذات قمة الكاتدرائية التي تمنى بناءها. هذا الاله الهادئ، الذي ما انفك يطالب بأن الفكر وحده يتوصل إلى القراءة، هو بشكل من الأشكال في وعينا، وكأن الفكرة تكفي لأن تبرهن لنا عن وجودها.

كما يصف سانت اكزوبري العطش بالتمسك بالماء. وهكذا نستطيع ان نحدد الانسان بالتمسك بالله، فبهذا المعنى حيث يتمنى الانسان الله بكل قوته ينتهي بفرضه هدفاً وحيداً يبحث عنه وسبباً وحيداً لتهليل المحبة. وعندما يمتلك الفرد فعلاً حقيقته وينتهي من صيرورته يتوصل إلى الجزء من الخلود الذي

يستحقه لأنه بامكانه ان يغيرَّ حياته تجاه الموت وذلك باعطائه معنى لأفعاله.

تصبح تمنيات كل منا التكامل في الموت ويكون ذلك مؤشراً عن حبنا للحياة واننا بالفعل نحيا، أجل لا يحس الانسان بثقل شيء عليه إلا الشيء المحروم منه. وتعود الرغبة في الموت إلى اختيار نوع الالتزام الذي يؤدي بنا الى صلب معنى الحياة. يشير سانت اكزوبري الى هذا التيقظ المستمر الذي يرتبط بالجسد تحت اسم الورع أو الحماس. لكنه لا يروق له الخضوع إرادياً إلى هذا النوع من فصل الروح عن الجسد ببطء. إلا أنه يؤكد اننا بحاجة إلى إثبات وجودنا وإلى التخلص من هذا المسخ المتهافت الذي يشدنا للبقاء فرديين. كما يحدث للعطشان الأسير في الصحراء الذي يحلم بآبار الماء، هكذا تأمرنا هذه الحاجة الى الغذاء الالهي بالذهاب بسرعة نحو موزعها. قد لا نتوصل أبداً إليها، إنما المهم هو اتباع نهجها والميل نحوها. مع الأخذ بعين الاعتبار الحركة والزخم اللذين يدفعاننا لاخضاع المطلق والعودة الى التعبد للاله الواحد. بشكل عام ينبغي اجتياز المستويات المختلفة تدريجياً والتي تؤدي الى السلم العالي أي السير من الانسان إلى الله وتأسيس الامتداد الداخلي الذي يتيح لنا التوجه في الحاضر في حال تمكن وعينا من التمييز بين ماهية الشيء وعدم وجوده، واكتشاف كل ما يتعلق بهذا الوعي كي يتواجد هذا الشيء. فالسبيل الواجب اتباعه هو طريق الله من خلال

الانسان وطريق الانسان من خلال البشر. يبدو إذاً أن جوهر الانسان بالنسبة لسانت اكزوبري هو في وجوده، شرط تحديد هذا الوجود بوعي الحياة مع تقبل فكرة الموت.

هكذا يجب الاحتفال بالموت على أساس انه أصل عظمة الانسان، لكن هذا لا يثير معارضة مهمة. هناك عدة غرائز تحرّك كل انسان، وتتداخل فيما بينها لتحميه من المخاطر بشكل متفاوت الدقة، وهي بذلك تحدث فيه بعض ردود الفعل الدفاعية تظهر بشكل اكثر حتمية غريزة حب البقاء، وهي التي تساعدنا بشكل افضل في عملية الاحتراس من الموت. فالعمل ضد هذه الغريزة ألا يعني أننا نعي أنفسنا بقدر ما نعمل؟ يرد سانت اكزوبري قائلاً:

«هناك حتماً غريزة للحياة. لكن هناك مظهراً لغريزة أقوى. فالغريزة الأساسية هي غريزة الاستمرار» . إن سر الاستمرار هو التبادل، فالانسان لا يكون لوجوده معنى إذا لم يهب نفسه. ولنؤكد ان العطاء يعني أيضاً الأخذ يجب أن ننال دائماً اكثر مما نعطي - لأن عطاء الذات يعني ان الانسان حدد صيرورته وهذا يعادل كل كنوز الأرض. ليس مهماً «إذا خلّصت الكلمات اللسان». إنما من أجل ايضاح أفضل، نقارن اقتراح التبادل هذا - هناك تبادل لأننا عندما نعطي نأخذ شيئاً من الآخرين -

بالحكمة الشعبية «كل ما تعطيه يعوِّضه الله عليك مئة مرة»! بهذا الفارق البسيط نستخلص الحسنة مباشرة.

لكي ندرك تماماً فكر سانت اكزوبري وما تتضمنه رسالته، يجب ان نقتنع بالتمايز الذي وضعه بين الانسان والفرد. إذ لا وجود لحواجز عازلة بين هذين المفهومين. فالفارق الوحيد الذي يخيم بينهما ليس سوى فرق نوعي. لكنهما ينبثقان من المادة نفسها، لذلك فان الفرد يكون قادراً على حركة تصاعدية نحو الانسان ومن ثم نحو الله، ذلك بفضل تطبيق قانون التبادل هذا على الأهمية التي لا يكون بوسعنا إلا الإلحاح عليها.

إذا كانت سعادتنا أو بالأحرى مكافأتنا، تكمن في اختيار وفاتنا او في اختيار الدعوة التي تتيح لنا التخلص من ذواتنا عبر الموت، إذا كان تحررنا مبني على زهدنا بكل الشهوات وإقلاعنا عن كل معالمنا الخاصة فإنها ستؤدي بالضرورة إلى التضحية؛ فالتضحية هي عطاء من الذات إلى الكائن الذي نطالب بالانتماء إليه.

إن التضحية تعني أيضاً أن نتكرَّس باتجاه التخصيص (المرور من الحالة الدنيوية إلى حالة القداسة). وفي معني التكرُّس لنشاط معين (تتقابل علاقة التعابير التالية كلمة لكلمة فرد - انسان دنيوي - مقدَّس). وباكتساب طابع القداسة تتحقق جلالة الانسان ويتم الاحترام المتبادل. جلالة

الانسان!... هنا تكمن نقطة الالتماس. فسّر لنا «باسكال» أفضل من غيره معنى الجلالة. إليك ما كتب في «التأملات»: «الجلالة هي أن تضايق نفسك، يبدو ذلك باطلاً بالمظهر لكنه صحيح؛ أجل فهو يعني: انني أنزعج كثيراً إذا كنت بحاجة لذلك، وبما انني اعمل جيداً دون ان يخدمك ذلك». يأخذ سانت اكزوبري الاجلال بذات المعنى وأحياناً بمعنى الاعتبار. فالانسان يحمل في نفسه اكبر مما هو، عليه ان يشرّف هذا الجزء من ذاته التي تجعله اسمى مما هو. لكن هذا الجزء من ذاته لا يجده إلا في الآخرين ولهذا السبب بالذات لا يمكنه إلا أن يميل نحو الغير. فالتضحية لا تعني خسارةً ولا قصاصاً، اعلن سانت اكزوبري، بل فعل خشوع. فالقبول بالخشوع لكل ما فيه من مشقة يعني معرفة النفس والتعرف إلى وجود قيمة سامية في النفس ذاتها ولا يمكن بلوغها إلا خارج الذات. والخشوع هو مبدأ الفعل ذاته.

بعد ان يتضح الانسان في وعيه، يستمر في عمله ومن ثم يكتشف من هو.

التحرُّر

رأينا كيف عمل سانت اكزوبري كي يستطيع الانسان استخراج جوهره انطلاقاً من وجوده والرسميات التي يجب أن يتبعها الفرد كي يكون له الحق في التعبير: أنا إنسان أو ممثل للانسان وبالوقت نفسه رسول الله، نعود للقول بأن صيرورة الانسان هي بمجملها في وهب الذات، وأن التضحية هي الفعَل الجوهري الذي يبرر تقبل الموت.

إذا كان التحرر هو بداية الحرية، فالانسان الذي تحرَّر بإقامة جسر فوق هوة العزلة، عليه أن يفكِّر أيضاً في معنى حريته. فهي أيضاً نوع من تمرين للنفس[1]، إنها نتيجة لما أطلقنا عليه المغامرة الداخلية. لكنها أيضاً إجابة للإكراه والضغط، فالضغط الوحيد المقبول هو، حصراً، ذلك الذي يخضعنا للهيكل حسب أشعارنا[2] إنه طاعة للواجب:

«ما أطلق عليه واجب هو عقدة إلهية تربط الأشياء، فلا

(١) القلعة، ص٢٤٤.

(٢) القلعة، ص٢٤٨.

تبني سيادتك، وهيكلك أو مجالك إلّا إذا بدا لك كضرورة مطلقة وليس كلعبة يمكن أن تتغير قواعدها بسرعة»[1].

ربما قد تتعجب من أن هذا المفهوم للحرية لا يرتكز على إمكانية الاختيار. لكن سانت اكزوبري يفكر على النحو التالي:

«إذا أرغمتك على اختيار هذا الباب دون الآخر، تتذمر من معاكستي عندما لا ترى مطلقاً أنك رضخت لضغط في حال وجود باب واحد»[2].

نستطيع معرفة الطريق الأفضل بين طريقين، تلك التي يمكننا الاستفادة منها أكثر، أي تلك التي تتيح لنا التكامل خارج ذاتنا. عندئذ نتصرف تحت ضغط الضرورة. فالحرية إذاً هي غياب الضغط الغريب، كما تراها العامة بما أننا نرغب هذا الضغط الذي يجعلنا نؤول إلى ذلك. فالحرية إذاً هي بوجود ضغط داخلي ويشير إليها سانت اكزوبري بالتعبير التالي: «الضغط غير المرئي». يختار هذا الأخير طريقة رفض هي هذا الضغط، فحريته تصبح «الحرية غير الموجودة» والحالة هذه «إذا لم تكن أبداً فلا نكون أحراراً مطلقاً». ولا نقع في الخطأ: ولا نخلط بين هذا الضغط الحر والضغط الذي يمكن أن يفرضه علينا دين أو دولة أو نظام سياسي أو رئيس معين إذ يقنعنا

(١) القلعة، ص٢٤٥.

(٢) القلعة، ص٢٤٤.

بأحكام ظاهرية للمبادئ التي يرتكز عليها وتجبرنا بتبني قاعدة السلوك التي يعتبرها أفضل من كل قاعدة أخرى. فالحرية التي تمنح لنا تكون حرية العبد، أجل، هناك فوق كل سلطة، سلطة العقدة التي تربط العلاقات الانسانية وتتأسس عليها عملية التجمع بين الناس. وهكذا إذا تصور الانسان أنه يحقق صيرورته بخروجه من عزلته الفردية، فهو لا يصبح فعلاً إلاّ إذا تكامل في التجمع.

إن التجمع الانساني عند سانت اكزوبري ليس مجموعة كل الناس، إنه تنظيم وبنية وليس عملية جمع. كل فرد منا يشكل جزءاً تكوينياً من هذا التجمع الذي يكون فكرياً قبل كل شيء. من هنا ينطلق الارتباط بين الناس. كل منا مسؤول تجاه الآخرين وواجبنا الأساسي هو المشاركة في توازن واستمرارية التجمع الذي ننتمي إليه، من العائلة إلى الجماعة. ولكن ما هو إسهام كل فرد؟ كي لا يحصل التباس في تأمين العدالة بين الجميع يجب أن يتساوى كل الناس وهذا غير معقول. فلا يوجد شخص بإمكانه منع الشقاء والأمراض والكوارث الطبيعية، أو ضرب هذا الفرد أو ذلك البلد أكثر من غيره. هل من الممكن تأسيس المساواة بتوزيع عقلاني للأملاك المادية بحيث نلغي الطبقات الاجتماعية المتميزة تبعاً لمصدر عائداتها وقوتها الشرائية؟ هذا يعني أن نوقظ في الانسان شيطان الملكية وبذلك تدعوه «ألاّ يكون إنساناً مطلقاً». إن المساواة الوحيدة الممكنة هي

تلك التي ترتكز على تبادل الارتباطات التي بواسطتها نؤكد إيماننا بالانسان وبأنفسنا. ففي التجمع يكون البعض كفيل للبعض الآخر وبالعكس. لسنا متساوين إلاّ باتحادنا بالله والالتزام الذي نملكه باحترام الروابط التي تجعلنا متحدين به وبانتحال الصفات الانسانية وترفعنا فوق أنفسنا. يجب أن تكون الملاحظة اليقظة لهذا الضغط الهدف الأساسي لحماستنا، ذلك لأن معنى الانسان يكمن فيها. ولهذا السبب، يحدد سانت اكزوبري الانسان كما لو أنه يسكن (مجال التجمع)؛ وهكذا يشبِّه الأفراد بالحجارة والتجمع بالكاتدرائية ويحثنا على العيش كمهندس معماري يعي أهمية كل حجر من الحجارة التي لا يصبح لها معنى، إلاّ من خلال الصرح الواجب بناؤه. كذلك عندما نحترم الناس بتكريمهم نعيد الولاء للانسان الموجود فيهم والمتسامي عنهم. تلك هي الحجة التي يرتكز عليها سانت اكزوبري بقوله: «إننا لا نستطيع أن نكون «أخوة» أو متساوين إلاّ بعض الشيء»[١] أي ان وجودنا يكون بدرجات متفاوتة مثل وجود الأخوة في مهنة أو ضمن جماعة أو في أمة أو في تجمُّع، ومثل هذا التمايز يكون عشوائياً لأننا كلنا أخوة بالله.

يقدِّم مثل الدوائر المتراكزة[٢] وهي فكرة أكثر دقة مما

---

(١) قائد الحرب، ص٢٢٥.

(٢) أي الدوائر التي لها المركز نفسه (المترجم).

يتوقعه سانت اكزوبري من الأخوّة. مهما كنا بعيدين عن المركز المشترك لكل الدوائر نبقى خاضعين للقانون نفسه الذي يحدد هذه الدوائر أو تلك. وهكذا نقول: أنا من هذه العائلة ومن هذا البلد ومن هذه الأمة أو من هذا التجمع، كل ذلك يعني القول أنا من هذه الدائرة. إلا أن شعاع أية دائرة إذا قصّرنا طوله أو مدّدناه يصبح متطابقاً مع شعاع دائرة أخرى وهكذا دواليك حتى اللانهاية، وهكذا يحدث لكل الشعاعات التي تنطلق من المركز نفسه. هذا المركز بالذات هو الله؛ - ولماذا نتجنب الصورة؟ تتحدد عظمتنا بمدى اتساع شعاع العمل. وبقدر ما نكون «صغاراً» وديعين بقدر ما نقترب من الله أي نقترب من النقطة التي تتجه نحوها كل الشعاعات - ما يطلق عليه سانت اكزوبري «العقدة الأساسية» - أجل إننا نخضع لحركة تحول، بهذا المعنى نعود إلى مبدئنا الأصلي. تتقيد العائلات بالأمم وتتقيد الأمم بالتجمعات الكبرى وهكذا نصل إلى الوحدة الأساسية. ننتمي أولاً للعائلة وبعدها للأمة وأخيراً إلى تجمع معين، وعملنا يجب أن يتناسب مع البحث عن تحقيق قانون عالمي يخضع كل فرد منا لمتطلباته. فالأخوّة بيننا ترتكز إذاً على مبدأ الجوهر وليس على مبدأ التطابق. كما يحق لنا أن نقول إن الدوائر المتراكزة هي «أخوة» بمركزها، وهكذا نستطيع أن نعلن عن تآخي الناس مع الله.

من ناحية أخرى، نرى أن هناك تكافؤاً بين الناس

ولا يوجد تساوٍ، من هنا عدم إمكانية تأمين العدالة المبنية على المساواة بين أفراد التجمع. فقط الشفقة تفرض نفسها لأنها محبة الله ومحبة القريب من محبة الله. لكن هذه الشفقة تصبح مشاركة وضغط بالمعنى الذي أشرنا إليه سابقاً، بحيث انها تؤدي إلى استتباب النظام في التجمع. هذا النظام السامي، نتمناه جميعاً لأنه أحد الاستنتاجات المباشرة لمغامرتنا الداخلية والتي تتناسب مع «الوحدة المسيطرة على المواد ومع تأكيد ما نحن عليه».

بالفعل، قلةٌ هم الناس الذين يتحملون مسؤولية الكرامة الانسانية، كما يدركها سانت اكزوبري. فهو لا يرى في العامل والفلاح من جهة والجندي والموظف من جهة أخرى إمكانية التوصل إلى هذه الدقة الأخلاقية التي يتطلبها منهم. قد يستطيعون ذلك إنما في مهنتهم فقط إذا أدركوا أن عظمة المهنة تكمن في اتحاد الناس. فهم يعملون بحماس وهمهم إتقان عملهم أجل فإذا بحثوا عن الاتقان فسيجدونه، حتى ولو كانت محاولاتهم الأولى لا تخلو من الأخطاء، المهم أن يعطوا كل موهبتهم ويبذلوا حياتهم حيال شيء يعطي معنى لأفعالهم ولوفاتهم. ومهمة رؤسائهم تكمن في تحريرهم، أجل تنحصر رسالتهم في خلق هذه الحاجة للوجود وهذا المذاق العالمي الذي يشكل الشرط الأساسي لانعتاقهم. وهؤلاء الرؤساء يكون لهم أيضاً رؤساء يدلونهم على طريق الحقيقة. فمن سُلّم إلى سلّم

تعهد السلطات إلى أن نصل إلى الرب المولى الذي طرح سانت اكزوبري مذهبه في «القلعة». الرئيس هو الذي يأخذ على عاتقه كـل شيء»[1] لكن «كـل واحـد هـو مسؤول بمفـرده عن الجميع»[2].

إذا توصلنا إلى تحرير أنفسنا، هل ينبغي تقديم البراهين على ذلك أيضاً، من المستحسن أن نكتفي بحريتنـا دون أن نضعهـا بتصـرف التجمـع. إن التضحيـة في الحيـاة هي من الشهادات الأكثر أمانة. ففي الموت إرادياً، بقصد خدمة قضية يرتبط بها سلام الآخرين، نتأكد من الحصول على أفضل مكافأة يمكن أن يتقبلها إنسان لا بـل نجد سعـادتنا. ولهـذا السبب بالذات ترانا ملزمين بالعمل بثبات من أجل خلودنا الخاص، ذلك لأننا نجهل متى نُطلب أو إذا كان التجمع معرضاً لخطر يهدد استمراريته. من جهة أخـرى لا يمكن تقييمنا إلاّ بقـدر ما نحن عليه في كل لحظة ورؤية موت قريب يقدم لنا مساعدة ثمينة لمعرفة ما إذا كنا نقوم بمهمتنا كإنسان حسب ما تقتضي الأنظمة، من المؤكد أن ميتة بلهاء كتحدي الخطر مثلاً يجب إدانتها بنفس المستوى الخياني في ساحة الحرب. وفي حال ينبغي أن نموت (ميتتنا الحلوة). لا يأتي شيء يكون بإمكانه تغيير طابع

(١) قائد الحرب، ص٢١٣.
(٢) قائد الحرب، ص٢١٢.

نهجنا لأننا قررنا مرة واحدة دون سواها أن نعيش كما ينبغي أن نعيش وكأنه يجب علينا كل صباح أن نربط خسارة جسدنا بخلاص التجمع. «عظمة حضارتي» كتب سانت اكزوبري، تكمن في أن مئة عامل منجم يعرضون حياتهم للموت في سبيل نجاة عامل واحد اختفى. فهم بذلك يخلصون الانسان. يمكن أن نضيف بشكل ظاهر: إنهم يخلصون أنفسهم. هذا هو المبدأ الذي يختصر الخطوط الكبرى لأخلاقية سانت اكزوبري.

الاستنتاجات

نستنتج من تفحص مراحل ترقي الانسان المختلفة نحو الألوهة كما وردت عند سانت أكزوبري، مسألتين رئيستين:

في بادئ الأمر، كيف يواجه مؤلف «أرض الرجال» خلود النفس أو على الأقل الخلود عندما يحدث التكامل في الموت؟.

بتقارب مفهومه من الدين المسيحي في موضوع خلود النفس. فالنفس تحيا بعد الجسد، وتتحرر من كل العناصر التي تعيِّن لها فردية خاصة وتمتد خارج الزمان. لكن ذلك هو بالفعل الهدف الذي تدفعنا إليه المغامرة الداخلية أي نحو نوع من فصل الروح عن الجسد. إذاً تصبح نفسنا خالدة وفي حياتنا علينا أن نقبل بالشروط المطلوبة كي نكوّن مجتمعاً وليس أفراداً، أجل إذا تخلفنا عن واجبنا هذا يعني اننا غير موجودين. يبدو أنه يجب أن نعتبر كلمة نفس هنا بمعنى جوهر الانسان، فالنفس هي تحيين الجوهر الانساني في شخص واحد. إننا نحمل خلودنا في داخلنا ونضع أنفسنا خارج الزمن، ونخلق جوهرنا. ولقد رأينا كيف

حللّ سانت أكزوبري حتى توصّل لهذه الغاية -إننا نكمّل أنفسنا في المستقبل، لا نتوق إلا لأن نكون فكراً مسيطراً على المادة تتعظم خلال عطشنا المطلق، ولكي يتحقق هذا العطش (فيقود إلى الشيء المرغوب) يقبل سانت أكزوبري وجود مطلق يسميه الله. هذه هي مسلمته. ولكن ماذا يحجب هذا التعبير؟ ومن هو هذا الاله؟ لا يكون إلاّ متشابهاً مع الاله الواحد للفلسفات الأفلاطونية الحديثة، وهو مصدر التعدد والاختلاف. بينما إله سانت أكزوبري هو مصدر العلاقة. ربما يكون إله المسيحيين -رغم أنه لا يظهر فعلاً كخالق قدير للعالم- أجل ان مذهب الاخوة، كما أعلنه سانت أكزوبري يوحي بمبدأ الاتحاد السحري للنفس مع الاله. المسألة دقيقة وسانت أكزوبري وحده استطاع أن يخبرنا عن الطبيعة الدقيقة للألوهة التي يتصورها. من الثابت في كل مرة اننا لا ندرك وجود الله دون أن نقوم بفعل إيمان حقيقي، لكن سانت أكزوبري يؤمن كثيراً بالانسان. المهم بالنسبة له أن تكمن مهنتنا كإنسان في التدليل على إيماننا بأفعال صحيحة، وأن نجد فينا حقيقة الاله الذي يعطي معنى للأشياء والأفعال وبه نكون ملزمين بالاعتقاد لانه مقترح بعنوان الضرورة المطلقة[1]. لا يظهر هذا الاله ولا يرد على دعواتنا إلا بالصمت. والعجيب اننا نبني عظمتنا من هذا الصمت. هنا تكمن البطولة التي

---

(١) في القلعة، ليس الرئيس سوى ضرورة طبيعية ص٢١٢.

يعلمنا إياها سانت أكزوبري ، بطولة حيث الأفعال هي صلوات وحيث الصلة هي ممارسة الصمت.

ما هي الحضارة التي تكلم عنها سانت أكزوبري؟ إن حضارة سانت أكزوبري هي «وريثة الله» أو مؤسسة على الأقل على مبادئ تتطابق والقيم المسيحية. كتب في «قائد الحرب»: «فهمت للمرة الأولى أحد أسرار الدين الذي خرجت منه هذه الحضارة التي أعتبرها حضارتي: «حمل خطايا الناس... وكل فرد يحمل كل الخطايا التي يقع فيها كل النـاس...». هذه الحضارة المتوسطية أو الحضارة الغربية هي التي ولّدت العـالم الحديث كما يبدو لنا الآن. رأى سانت أكزوبري خلال الحرب العالمية الثانية أن تجمع الناس الفكري أصبح مهدداً بالتقسيم وأن الأخلاق الجماعية لا تهتم أبداً بالانسان. وان كـل فرد، ببحثه عن مصلحته الشخصية، ينسى أنه مسؤول عن المحيط الذي ورثه. فسانت أكزوبري لا يثور ضد حضارة الآلة، لكنه يقاوم أولئك الذين يؤلهون الآلة بحيث يصبحون تجاهها عبيداً أو مولهين. فهو لم يعتبر الطائرة كغاية بحد ذاتها بل وسيلة أو أداة تحليل تتيح للانسان اكتشاف نفسه واختبارها. إذا بدا قاسياً في نظر التقنيين الحقيقيين الذين تتشابه مهمتهم مع الأعمال الخفيفة الهدامة، ذلـك لأن هؤلاء لا يفكرون إلا من خـلال مردود الآلات التي صنعوها، تاركين جانباً أولئك الذين أتاحوا إعطاء معنى لهذا المردود. ليست الآلة هي التي تستعبد الانسان، بل

هؤلاء الذين يستخدمونها إذ يجعلون من الناس ومن التجمع مجالاً خفياً للاستغلال. لا يدين سانت أكزوبري هذه الحضارة الصناعية، بل يتمنى بكل بساطة أن تتضاعف بحضارة زراعية. يتردد موضوع البستاني الذي ينبت وردة ويبقى يتأملها وكأن حياته كلها محتواة فيها، في أغلب مؤلفاته. فهو يمثل بشكل ما رمزالرصانة التي استوحى منها سانت أكزوبري كثيراً. هناك بعض الأراء السوداء، بدون شك، التي تعارض مذهب الآلة بالنسبة لمذهب الزهرة وبالعكس. ويجيبهم سانت أكزوبري بأنهم لم يدركوا شيئاً لا من الآلة ولا من الزهرة. بالنسبة إليه يرى من الضروري أن يتجه البعض منهم إلى الأولى والبعض الآخر إلى الثانية بنفس الميل والحنان، لأنهما نقاط التقاط للقطبين الممغنطين وأنهما يخلقان الابتهاج نفسه. يتحول المعدن إلى طائرة، فيعانق السماء ويصبح أفقياً أو عامودياً، ويتحول إلى انتصار أو تأمل أو حب: وهكذا يتجسّد، بينما يتحول النبات إلى ضياء أو حلم أو تأكيد أو سبب للحياة؛ ومن ثم يتوحّد. فالميكانيكي وزارع الورد هما وجهان يضيئهما الفرح نفسه لكونهما دخلا حس الأشياء من خلال الانسان الكامن فيهما، أجل ليس الانسان سوى عربة القوانين الخالدة التي تصبح فعّالة بوعيه وبحديثه.

تنادي حضارة سانت أكزوبري بالوحدة فوق كل التناقضات التي يعتبرها عابرة، وتوضح كمال الانسان المشدود

نحو الله. الثابت والفخور بالامتيازات التي يحصل عليها بصبر ووداعة، دون أن يقيّم تعبه أو يحسب مدى لذته.

لا يقبل سانت أكزوبري بالتوفيق بين المتباعدات كغاية لنشاطات الانسان. فهو يدعونا بالعكس إلى التسامي فوق الخصومات وذلك بالعمل ضدها. فإذا استرسلنا لخوف الألم فإننا لا نعمل سوى تزايد ضعفنا. لكن البحث عن سعادة مباشرة هو عمل مُدانٌ أيضاً. لذلك فهو لا يتزايد إلا بإمكانية الغبطة حيث تشكل بهجة إتمام الواجب الحصة الكبرى وخاصة عندما تتوصل إلى التعرف إلى حدود هذا الواجب وتشعباته في تصاعدنا نحو الالوهة - تتأسس الواقعية الفكرية عند سانت أكزوبري (يمكن تقاربها مع فلسفات أفلاطون، پاسكال، روسو، بلوندل لافيل. . . إلخ) على العمل كوسيلة للمعرفة. فالعمل خلال تمركزنا يتيح لنا اكتشاف الطبيعة الحقيقية للروابط التي توحد الانسان وتتحقق بثبات من صلابته، إنها الحب المحصور في هبة الذات.

الانجاز المحقّق

ان شكل الحضارة التي اقترحها سانت اكزوبري يصبح صدفوي إذا لم تقتصر على تجمع فكري من الناس. فهي تستند إلى زهد الانسان أكثر من استنادها على سياسة بسيطة. وها هنا ابداع الشاعر الذي يعتقد بقابلية الكمال عند الجنس البشري، والذي يبقى يأمل بأن الناس في حال وعوا أنفسهم ووعوا طموحاتهم المشتركة، يدركون كيف يتجنبون المنازعات الأخوية عند حراثة أراضيهم. وألا يهتموا بصراعات النفوذ التي لم تتوقف عن تغذية غرورهم الغاشم.

ففي عصر حيث تكاثر الحديث عن الانحطاط والفساد والانحلال الأخلاقي والنميمة والخيانة، شعر سانت اكزوبري انه من الضرورة الملحة لمجتمعنا، إيجاد القيم الخالدة التي انبثقت منها هذه الحضارة والتي باسمها وقعت جرائم عديدة وبمنطق محترس من كل عقل سليم. أراد أن يحافظ على الناس من كل ما يهدد إفسادهم.

إن الحكمة التي يستخلصها سانت اكزوبري من مفهومه

للعمل ترتكز على الشرف والتضحية. وهي تطوع كل تصرفاتنا لخدمة واحترام الكرامة الانسانية التي يجب ان تُفرض على ضميرنا كأمر إلزامي اخلاقياً. فلا يمكن أن نكون إلا ما نحن عليه، ومحظر علينا الاسترسال لليأس لأن ذلك لا يشرّف تجمعنا. يقتضي بعض التشجيع لكي نتوصل للخضوع لهذه المتطلبات، لأننا مضطرون إلى إبعاد كل شعور لا يوافق إلا مصيرنا الشخصي.

هنا يكمن مفهوم الشجاعة الذي يزداد غنى بمعناه الجديد على الرغم مما تعتقده أغلبية الهواة «للأحاسيس القوية». فالشجاعة لا تكمن في الاستخفاف بالموت أو في تذوق روح المجاذفة. «فإذا لم تتأصل جذور الشجاعة في مسؤولية مقبولة فلا تكون سوى مؤشر فقر أو إفراط في الفتوة[1]. وكذلك المرشحون للانتحار، اذا قدموا حياتهم في سبيل قضية لا يؤمنون بها، فقط كي يكون موتهم لخدمة شيء ما، فهم لا يتممون إلا فعل مجاني ويهبطون الى مستوى الماشية المعدة للمسلخ. ولا يكون المستوى نفسه عند اولئك الذين يبحثون عن الخروج من ضيقهم الفكري بالتساؤل حول معنى يمنحونه لوجودهم. هذا القلق حول الصيرورة التي يخفق كل فرد عندما يشعر بأنه مرمي في عالم حيث كل شيء يملك علة وجوده، دون أن يعرف هو نفسه المكان الملائم الذي يشغله، يرغب سانت اكزوبري بتوجيهه نحو تتبع حقيقة ذات مستوى اعلى. من المهم جداً بالنسبة لكل منا ان يكتسب موضعاً

---

(١) أرض الرجال ص٥٥.

في العالم يكون حقيقياً وفعّالاً (تكون حقيقته حسبما يكلفنا) كما يجب ان يكون متكاملاً، بالضرورة المطلقة، مع مجموعة الأنشطة التي تؤمن للتجمع استمراريته ودوامه. لكن الموقف الأساسي الوحيد هو الذي يتيح التدرب الحر على المحبة التي يجب أن نحملها للبشر من خلال المهنة التي خصصناها لأنفسنا. بإمكان كل فرد، بشكل عام أن يجمع المسؤولية التي تحدد موقعه في التجمع، إذا لم يكن يتوقع سوى تجسيد علاقة قابلة للاتساع حتى اللانهاية ضمن ترتيب محدد للعلاقات. لا يبقى القلق منزعجاً عندما يبدأ بالعمل، لكن العمل الذي يتخذه لا يكون له ثقل إلا إذا كان مستوحى من حاجة تأكيد تضامن الرجال وبذلك لا وجود للشجاعة إلا بقدر ما هناك إرادة للعمل.

يؤخذ على هذه الاعتبارات حول التزام الانسان الذي يبغي بناء مدنيته على أساس المبادئ الأخلاقية المتعذر ابعادها عن الحقيقة اليومية. ولنكرر ان التجمع الذي يتكلم عنه سانت اكزوبري ليس فكرياً. فالانسان، قبل كل شيء وفي كماله التام، هو صورة للروح المضادة للمادة، ومسيطراً بذلك على الطبيعة والجسد. ففي كل مرة نحوّل فكرة التجمع الى فكرة الجماعة، نصل الى وضع موضع الممارسة هذه الخلقية للعمل، كما وضعها لنا سانت اكزوبري في كتبه الأولى.

لنأخذ كمثل الخط الجوي، ولنتأكد من الطيارين الذين

يؤمنون الاتصالات البريدية في ظروف الطيران الخارقة إذا كانوا فعلاً رجالاً حسب المعنى الذي يتناوله سانت اكزوبري في تعابيره. ما هو الهدف الذي استقر عليه؟ هل يؤكد افضلية الطائرة على كل وسائل النقل الأخرى إن من ناحية السرعة او من ناحية الاطمئنان؟ لم يكن ذلك سوى اشباع طموح صانعي الطائرات ووضع الانسان في خدمة تقدم تكنولوجي صادق، لكنه محدود من جهة أمنية الانتشار التي لا يمكن التأكد من ضرورتها. ألا تتم عملية تقارب الشعوب بتأسيس سبل جديدة للاتصال وبإعطاء قيمة للعلاقات الانسانية المتمثلة «بالبريد»؟ ربما يكون ذلك صحيحاً، لكن لا يدركه سوى الرئيس فقط. ولا يكتشفه الطيارون إلا أثناء الطيران عندما يكونون معزولين تماماً عن العالم. فيؤدون طاعة عمياء لرئيسهم لأنهم يؤمنون به وبالقضية التي يدافع عنها. وإذا لم ينهجوا هذا الايمان تصبح أفعالهم مُحالاً. كل ما يهمهم هو النهج وليس الهدف الذي يجب تحقيقه. فمهمتهم تكمن في التغلب على العناصر وايصال البريد الى الشاطئ الأمين، وكان مصير حضارة معينة مرتبط بهم.

ففي «طيران الليل» يدرك ريڤيير أن طياريه لا يصبحون رجالاً ولا يمكن ان ينتموا إلى ذلك. يظهر انه عنيد: ويصبح كذلك رغمًا عنهم. فخط الطيران يصل بين الطيارين ويجعلهم ممثلين لتجمع حقيقي. هذا الخط لا يمكن أن يتواجد إلا بهم ولا

يكون لهم معنى إلا من خلاله. وليؤكد سانت اكزوبري ذلك قال:

«إذا عارضت مرموز عندما انخفض نحو السفح الشيلي لجبال الأند ومعه شحنة الانتصار في قلبه. وباعتقاده ايصال رسالة بائع ربما لا تعادل شيئاً بالنسبة للمجازفة في حياته ترى ان مرموز يهزأ منك. فالحقيقة هي وجود الانسان الذي يولد فيه عندما يجتاز الأند»[1].

«إذا كانت الاحتياجات التي تفرضها مهنة معينة تتحوّل وتغني العالم» فما هي التطلعات التي تؤديها مهنة الطيار؟

يوقف ريفيير قدرات السلطة المطلقة. وفي هذه الحال عليه انْ يبقى غير مكترث - ظاهرياً على الأقل - بأحاسيس اولئك الذين يأمرون به. ولكن لماذا؟ هو نفسه يجهل ذلك أو يريد ان يجهله. تبقى فقط مسؤوليته كرئيس هي الأساس. فقد خلق تجمعاً، وهذا التجمع لا يحقق ذاته إلا إذا احتوى على أناس مستعدين للتضحية في سبيله. فقد سعى سانت اكزوبري في «القلعة» إلى إقرار دور الرئيس شرعياً.

ففي «طيار الحرب» يعطينا فكرة أكثر دقة عن ممارسة العمل، بعد عودته من مهمة استكشاف فوق أرّاس تأمل سانت

(١) أرض الرجال ص٢٠٤.

اكزوبري في الهزيمة التي عانى منها بلده. فاذا لم يفتش مباشرة عن الأسباب فهو يختصرها على الأقل بهـذا التعبير: «تـركت مفهوم الانسان للفساد»[1] وكأنـه يُعبِّر عن تفكـير كل فـرد. المقصود بالتجمع هنا فرنسا أو الفريق ٣٣/٢ الذي ينتمي إليه هو، وهذا التجمع مُهاجم من العـدو. يدافـع الجنود خـلال الحرب عما هو لهم أي عائلاتهم ووطنهم. فواجبهم اذاً الدفاع عن إرثهم وعن تجمعهم لأنهم من فرنسا ومن فريقهم. فالحرب (التي ليست سوى نوعاً من المرض، تعطي معنى لأفعالهم. فهم مسؤولون عن الهزيمـة. هذه الجـزية المفـروض تقبلها، هـذا التقاسم للآلام، هذا الانسحاق الذي يتلقاه الضمير الجماعي المجروح في اعماقه، يوقظ شعباً بكامله فيرى في هزيمته بداية انتصاره. يكمن مجد المقاتل كله في شرف التضحية. وهكـذا تتحقق أخلاق سانت اكزوبري نقطة نقطة في موقف المحارب الذي يصارع في سبيل شيء ما وليس ضده. ولكن، في حال اتخذ العدو الاستدلال نفسه، اذا قامت مجابهة بين تجمعين لهما القصد ذاته في الانتصار كمنافسين، بينما هما متحدان فكريـاً، فماذا يحدث لهذه الأخلاق؟ هل ينبغي ان نقبل بأن الناس تنكشف بفعل صراعات قتل الأخوة وأن المحارب يجد قدره عند ذلك الذي يخضعه او يجابهه مع العدو؟ تبدو المسألة بالنسبة لسانت

---

(١) طيار الحرب ص٢٢٩.

اكزوبري غير معقولة. ليس هناك خصومات إلا من الكلام[1].
إذا كان هناك تجمعان شرعيان ولهما المقاصد ذاتها ويرتكزان على طموحات متشابهة، لا يمكنهما تجنب الحرب، هذا لأنهما لم يتمكنا من استخدام كلامهما بشكل جيد أو احترام محتواه. لم يتم التوصل إلى الأخلاق المطلوبة هنا لأنها لا تعني الا طريقة واحدة ينبغي اتباعها، ولمجموعة القواعد التي تتيح التحرك بموجب مبدأ المحافظة على التجمع. ما ينبغي التوصل إليه: علام تتأسس فكرة الانسان « قافلة الله». ولهذا السبب دعا سانت اكزوبري الى إدراك مفهوم سر الانسان المبني على تعلُّم الكلام حيث يتم استخدامه من خلال الأفعال. إذاً ينبغي الا نثقف الناس فقط بل نعلمهم حسن الاتصال بعضهم ببعض بواسطة الأفعال اكثر منه بواسطة الكلام وذلك بتجاوز لا بل بتحويل رأي هذه التجمعات التي هي أسيرة الكلام الفارغ من كل محتوى. قد تتمكن هذه التجمعات بعد أن تتصارع من التوصل، من تلقاء نفسها إلى اكتشاف لغة مشتركة توفق بين الأضداد (أعلن سانت اكزوبري ان الحرب مرض، لكنه لا يجعلنا نشعر اننا بصحة جيدة إلّا بعد التعرُّف إلى مرضنا).

إذا كانت أخلاقه المستخلصة من روح العمل مقبولة بالنسبة لكل التجمعات، مهما كانت مقتضبة، - من الفريق

(١) القلعة ص٦٩.

العامل في خط الطيران في الليل إلى وطن قائد الحرب - فسانت اكزوبري لا يرى إمكانية وجود تجمع واحد - مثلاً تجمع الرجال الفكري - الا في الصيانة الثابتة للايمان بالانسان وبالله.

لا يمكن التحقق من أي شكل من أشكال العمل إلا إذا تحوّل إلى اشباع شهوة فردية. فالعمل يساعدنا على التحرر من أنانيتنا، وبذلك يخلصنا من الموت ومن كل أنواع الضعف، إنما عليه أن يجد دوافعه في تنظيم الحياة الجماعية نفسها. تعود قيمة العمل الى التزام التجمع الذي ننتمي اليه وذلك بأن نلتزم نحن تجاهه.

فالأخلاق التي يحددها سانت اكزوبري تتأسس على احترام هذه الالتزامات وهذا ما يشكل التعبير عن حركة الانسان باتجاه الالوهة المعروفة كحاجة مطلقة.

إن مبدأ العمل كما رأيناه هو التواضع. يفرض العمل التضحية ونسيان الذات ويرغم الفرد على التحول نحو رغبات لا تهمه شخصياً، عندها يتخلص من الأوهان ومن أنانيته الطبيعية كي يشارك في تجمع يكوِّن اساسه باكتشافه سبب تكامله.

وهكذا ترتبط فكرة العمل بفكرة التجمع ولكن بشكل ضيق. وهنا تكمن الأخلاق الاكزوبرية التي ترتكز على الترابط بين هاتين الفكرتين.

إيمان مطلق بالانسان.

«إن الله بادئ ذي بدء هو معنى لأسلوبك.
وأسلوبك إذا اتخذ معنى يُظهر لك الله»[1]

يقول أوسكار وايلد على لسان أحد أشخاص مسرحيته «دوقة بادوا»: «لا يقع في الخطيئة كل من تصرف بمحبة» وكأن الحب يكفي لتبرئة كل فعل مخالف لقانون أخلاقي معين. ولا يخالف سانت أكزوبري ذلك عندما يؤكد أن «الموت يحصل بسبب الحب»[2]. ينبغي أن يكون للحب هدف وأن يكون ممغنطاً ببعض الرغبات التي تتجاوزه قوة وقيمة. فلا يكون الحب إلاّ لأنه ينجو فينا؛ بالفعل، إنه يشكل الدافع الأصلي الذي يتيح للنفس القيام بحركتها الخاصة عندما تسعى للعودة نحو مبدئها الأصيل. وبتعبير آخر، يعتبر الحب هذه الامكانية في تحقيق الرغبة بالوجود من خلال الغير، إذا استطاع أن يوحد كل الأهداف المحتواة ضمنياً في إرادتنا على العمل. بإعادة مصير الفرد إلى اكتماله بالعمل –مهما كان نوع هذا العمل (من مزاولة مهنة إلى صراع المقاتل)– يشير سانت أكزوبري إلى أن العمل الوحيد

(١) القلعة ص٢٢١.
(٢) القلعة ص٦٥.

الذي يكون أصيلاً هو ذلك العمل الذي يشرِّف انتهاء الرجل إلى التجمع، من المعروف أن المقصود، عند سانت أكزوبري، بالعمل والتجمع والصلة التي تربط هذين التعبيرين، هو تقريب معاني الحب والعمل بالطريقة نفسها، ليس هناك سوى حب واحد يمكن أن يُفرض علينا بقوة حقيقية غير قابلة للمناقشة، إنه حب الانسان الذي يؤدي إلى حب الله. إنما هل يفرض الحب الايمان بالوجود الحقيقي لمن نحب، أو نقتنع على الأقل بأن هدف حبنا ليس العدم المحض. هنا بالذات تظهر الصلة الحقيقية بين الحب والايمان، وعلى هذا الأساس ترتكز عقيدة رئيس التجمع أو الملك كما هي معروضة في «القلعة».

بالنسبة للرئيس، ينبغي تكوين الانسان ببناء مسكنه على أساس القيم الكامنة فيه. فالرئيس هو ذلك الشخص الذي منحته العناية الالهية قدرة الابداع. إنه في شكل من الاشكال تجسيد للانسان المتواحد بواسطة بقية الناس، ومن خلالهم؛ هو ممثل للاله وعليه تحرير الضمائر بإخضاعها لنظام التجمع الذي يقترح تأسيسه. إن أول مسؤولية يتحملها الرئيس هي في إعطائه «وجهاً محباً» لأفراد تجمعه، بعد ذلك يحثهم على المشاركة في إنشاء عمل مدهش مرهون بتحمل المسؤولية من قبل كل فرد. فالعمل الممكن إنشاؤه هو المملكة، والوجه الواجب محبته هو وجهه الخاص الذي يمثل صورة الانسان والاله. فالأفراد باحترامهم لرئيسهم يحترمون الله والانسان المتمثلين فيه.

وهكذا فكل فعل إيمان يستلزم فعل محبة؛ وحقيقة ارتباط الحب بالايمان تصبح بحد ذاتها ولادة مشتركة للانسان والاله. وعندما يكتشف الرئيس أنه رمز الانسان ورمز الاله، يتطابق مع الانسان ويتجه نحو الاله. وفي حال أدّى عملاً ، فهو ينقل عقيدة الاله من القوة إلى الفعل. ولهذا السبب بالذات، يجدر بالأفراد ألا يثقوا فقط برئيسهم بل أن يحبوه ويؤمنوا به ويتقبلوه كضرورة طبيعية، لأنهم في حال أحبوه كما تحدّد يضفون عليه سمات أعلى من سماتهم وخارقة للطبيعة تقريباً. ليس الرئيس شيئاً بدون أفراد تجمعه. وهؤلاء ليسوا شيئاً بدونه. وعلى الرئيس أيضاً تقع مهمة تعليم أفراد التجمع المحافظة على حبهم وإيمانهم، كما إن من واجب الأفراد النظر إلى الرئيس كرمز الاكتمال الانساني.

فكل ما كتبه كابريال مارسيل في صحيفته الماورائية، يدل على أننا لا نستطيع تجزئة الحب والايمان:

«عندما يتوقف الايمان عن كونه محبة فهو يتجمد باعتقاد موضوعي تجاه قدرة مدركة بشكل فيزيائي، من ناحية أخرى، فالحب الذي لا يكوّن إيماناً (والذي يفرض كينونة الله المحب) هو مجرّد لعبة معنوية... فأنا انقطع عن الايمان بالله عندما أتوقف عن محبته.»

يقول الرئيس من جهة ثانية:

«عندما تنطفئ شعلة الايمان يموت الاعتقاد بالله ويبدو بعد كل ذلك لا حاجة له. وعندما ينضب ورع الأفراد في ملكهم يصبح

عرضة للتجزئة ذلك لأنه مصنوع من هذه الحماسة الكامنة في نفوسهم»[1].

فالرئيس هو وحدة المُلك؛ وهو الذي يضفي على التجمع معنًى، لكن ينبغي فيه الخضوع إلى شعبه أكثر مما يخضع كل فرد له. يمكننا اعتباره كمحوّل لهم»[2].

يبدو تحديد الانسان، بدون شك، عسيراً دون ربطه بالله، وكذلك الاله دون وضع الانسان كموجود فعّال في الكون. لقد رأينا أن سانت أكزوبري توصل إلى تحديد وجود الانسان بواسطة وعيه للحياة وتقبله للموت. فعلى هذا الأساس يتم تدريب الرئيس. فهو يعلم أن مصير المُلك مرتبط بمحبة أفراده وإيمانهم؛ فعليه أن يسعى إلى إثارتهم، فهم لا يدركون حقيقة شيء ما إلا بقدر ما يثير هذا الشيء حبهم وإيمانهم. لكن الحقيقة الأولى «هي أن الأسلوب هو الذي يحرر الكلية»[3]. فالرئيس وحده يجب أن يمتلك هذا الأسلوب حيث يتم التعبير عن المحبة وشروط الحب. فواجبه إذاً هو أن يحوّل إلى الآخرين كل ما اتخذ عنده طابع الوضوح في شمولية الشرائع حيث يستخرج منه حكمة أفعاله. ويكتشف الرئيس حقيقة وجود الله في الصمت

(١) القلعة ص٥٦.
(٢) القلعة ص١٤٨ - ١٤٩.
(٣) أرض الرجال ص٢٠٦.

الذي يلي الصلاة ويعتبر جواباً لذلك. فإرادة الاتصال بالله تعني تحويل الكلام إلى صمت. فالأسلوب هو الذي يترجم معنى الانسان. لكن إذا اكتمل بحد ذاته لم يعد بحاجة إلى حب الظهور. عندما يصبح صمتاً أو صدى للصمت الالهي؛ إنه الصمت المسترجع للالوهة. ففي هذه الحالة من الذهول الذي يستوحي منها الرئيس تكمن مكافأة الانسان الذي أكمل صيرورته. لقد أوضحنا سابقاً كيف يمكن للفرد أن يتكامل بالعمل وبتوعية الرئيس لأفراد تجمعه وما يجب أن يكونوا عليه، يطرح مسألة إرغامهم على الصيرورة والتكامل؛ يؤسس بذلك مراسم تتيح لهم التسامي فوق أهوائهم وذلك بمنحهم طابعاً مقدساً لكل طريقة من الطرق التي يتطلبها منهم كي يكونوا من المؤسسين الحقيقيين للانسان. هذه المراسم تناسب مجموعة الممارسات المؤدية إلى حالة من التشوه. وهكذا يعمل الرئيس، دون أن يعبّر عن ذلك ظاهرياً، على إدخال أفراد تجمعه في مذهب المملكة التي هي ملكة الانسان. إن عملية خلق إيمان مطلق بالانسان هي مهمة الرئيس. ليست المسألة بالنسبة إليه مسألة وضع الانسان مكان الله، إنما بوضعهما معاً بالمستوى النظري وحده، والانسان هو الأقرب، هذا يعني أن بإمكان الناس رؤية الله من خلال الانسان، أو بشكل آخر يضع الانسان الله موضع الوضوح.

إذا كان هناك انصهار بين الانسان والله، فلا مجال لحصر

الكلام في تأليه الانسان. لا ننس أن الانسان بنظر سانت أكزوبري ليس له وجود بمعناه الروحاني، وأن على الرئيس أن يهتم بادئ ذي بدء بالتكوين الداخلي للانسان. ولهذا السبب بالذات يحرّر الرئيس الرجل من أساليبه، هذا السيد البربري الذي يستطيع أن يقطع الرؤوس وأن يسلي الفتيات الصغيرات الباكيات، وأن يعاقب الطبيب الذي يرفض عناياته والجندي الذي يبعد طلقاته، هذا الرئيس هو «عربة وطريق ونقل» للإله يجهل غايات الله. إنه الوحيد المحكوم عليه بالعزلة، لكن إذا استطاع شفاء أفراد تجمعه من قلق عدم وجودهم، يشعر عندها بالارتياح فيعي المشاركة بالله ويصبح بالمستوى نفسه لأفراده.

بينما الرئيس الذي يرغب في تحويل أفراد مجتمعه إلى حقيقة الانسان يتلمس محبتهم، هو مرغم على تحديد «الوجه الواجب محبته» بواسطة أسلوب «يمتص التناقضات» أسلوب كلام تجد جذوره قوتها في رمال الأفعال.

ففي بعض المختارات من «القلعة» التي سنعيدها هنا، نرى كيف أن الرئيس يدرك أخلاقيته وكيف يتمنى، بغنى خبرته التجريبية والروحانية بناء ملكه الذي ليس سوى نوع من التجمع الروحاني للناس.

انه مسكن الناس، من أسنك على البرهان؟ من تراه يكون بإمكانه تشييدك حسب المنطق؟ أنت موجود وغير موجود.

أنت هو ولست هو. انت مصنوع من معادن متباينة، ولكن يجب اختراعك للتمكن من اكتشافك. كما حدث لذلك الرجل الذي هدم بيته مدعياً التعرف اليه فوجد أنه لا يملك سوى كومة من الحجارة والقرميد والآجر، ولم يعد يجد لا الظل ولا الصمت ولا الأنس، ولا يدري ماذا يفعل بهذه الكومة من القرميد والآجر والحجارة، فهو ينقصه الاختراع الذي يسيطر على هذه المواد والموجود في قلب وروح المهندس المعماري. اذ ينقص الحجارة روح وقلب الانسان.

وبما انه لم يبق لـه من براهـين سوى القـرميد والآجـر والحجـارة وينقصـه الـروح والقلب اللذان يسيـطران عليهـا ويغيرانها بواسطة قدرتها بصمت، وبما ان القلب والروح يفلتان عن قواعد المنطق وقوانين العدد حينئذ أظهر انا باستبدادي. أنا المهندس المعماري، أنا الذي أملك القلب والروح. أنا الوحيد الذي أملك قدرة تحويل الحجارة بالصمت. أتدخل وأعجن هذه العجينة التي ليست سوى مادة، حسب الصورة الخـلاقة التي تأتيني من الله وحده وبعيداً عن الأساليب المنطقية. أبني حضارتي مشغوفاً بالذوق الذي ستكون عليه كما يبني الآخرون قصائدهم يعدلون جملتهم ويغيـرون الكلمة، دون أن يكـونوا ملزمـين بتثبيت الانعطاف أو التغيير، مشغوفين بالذوق الوحيد الـذي يملكونه ويعرفونه بقلبهم فقط.

أجل أنا الرئيس. أنا أنص القوانين وأؤسس الأعياد وآمر بالتضحيات من خرافها وماعزها، مساكنها وجبالها، استخلص هذه الحضارة التي تشبه قصر والدي حيث كل خطوة تحمل معنى.

أجل بدوني، ماذا عساهم يفعلون بكومة الحجارة سوى تحريكها ذات اليمين وذات الشمال، ولا تصبح سوى مجرّد كومة من الحجارة غير المنظمة. أما أنا فأحكم وأختار. وأكون الوحيد للحكم. وها هم بإمكانهم أن يُصلّوا بالصمت وبالظل ما يتوجب عليهم لحجارتي. حجارتي المنظمة حسب الصورة التي أعطاها لها قلبي.

أنا الرئيس. أنا المعلم. أنا المسؤول. وأرجوهم أن يساعدوني. علمًا بأن الرئيس لا يخلّص بل هو الذي يرجوهم كي يخلصوه. أجل بواسطتي وبواسطة الصورة التي أحملها تتأسس الوحدة التي أكونها وحدي من خرافي وعنازي ومنازلي وجبالي، والذين تراهم عشاقاً يصبحون عشاقاً لألوهة فتية تفتح ذراعيها في الشمس والذين لم يعرفوها بادئ ذي بدء. انظر اليهم كيف يحبون البيت الذي ابتكرته حسب رغبتي ومن خلاله كنت المهندس المعماري. كما يحدث لذلك الذي يحب تمثالاً معيناً فهو لا يحب الخزف ولا القرميد ولا البرونز انما يحب نهج النحّات. وهكذا أجعل شعب بلادي متعلقاً بمنزله وذلك بالتعرف اليه. وهم لا يعرفونه الا بعد ان يكون قد تغذى من

دمائهم، وتزيّن بتضحياتهم فهذا المسكن يتطلب منهم حتى دمهم ولحمهم ذلك لأنه يشكل معناهم الخاص. عندئذ لا يمكنهم جهل هذه البنية الالهية وسيشعرون تجاهها بالحب وستصبح سهراتهم ورعة. وعندما تتفتح براعم الأولاد، على الآباء ان يهتموا بادئ ذي بدء باكتشاف هذه البنية لهم بغية الّا يغرقوا في تنافر الأشياء.

واذا تمكنت من بناء مسكني بشكل مترام كي أعطي معنى للنجوم، حينئذ يكون أفراد التجمع قد غامروا بأنفسهم خلال الليل على عتبات بيوتهم ورفعوا رؤوسهم يشكرون الله لكونه رعى هذا المركب بأمان. واذا تمّ بناء هذا المسكن بشكل ثابت كي يتمكن من احتواء الحياة في استمراريتها، عندها ينتقلون من عيد الى عيد كما ينتقلون من بهو الى بهو، مدركين حيث يذهبون ومكتشفين خلال تنوع الحياة وجه الله..»

* * *

تبدو عزلتي واسعة النطاق. فأنا أطلب لشعبي الصمت والتمهل، وأشرب عنه هذا الادخار في أعماق النفس وهذا الضجر في أعلى الجبال حتى المرارة. وسأرى تمحي أضواء المدينة في الليل. هذا النداء الفائق الحد الذي تكونه مدينتي الى أن يكون الكل قد تجمع واختبأ وقابل بعضهم البعض. وهكذا أراهم الواحد تلو الآخر يختبئون وراء كل نافذة تنطفئ،

فيتعرفون الى حبهم ثم الى عدوهم. فعلى الأقل لا يتم تبادل الحب عندهم بشيء أوسع من الحب.

تدل النوافذ الأخيرة المضاءة على احتوائها على مرضى. هناك اثنان أو ثلاثة مرضى بالسرطان يشبهون الشموع المضيئة. وهذه النجمة، هناك، ربما بقَي مأخوذاً بالعمل، أجل فهو لا يستطيع النوم اذا لم يؤد مهمته. وأخيراً بعض النوافذ تنتظر بإلحاح ولكن بدون أمل. أجل ان الله قد قام بجمع محصوله اليومي، وهناك من لا يدخلون مطلقاً.

اذاً، منهم من يشبه الخفراء تجاه الليل أو تجاه البحر. وها، قلت لنفسي، الأدلة على الحياة بمواجهة البحر الغامض. ففي مقدمة الحرس كنا عدة أشخاص للسهر على الرجال الذين يطلبون اجابة من النجوم. كنا واقفين مع اختيارنا لـلاله. متحملين ثقل المدينة، كنا عدة أفراد بين السكان حيث الهواء المجلد الذي يهبط من النجوم كثوب قاس كالسياط.

أيها الرّبان، يا رفاقي، انظروا كم هي قاسية، هذه الأمسية الآتية. ان الناس النائمين لا يعرفون أبداً ان الحياة ليست سوى انسلاخ مؤلم وتشبه قرقعات الإند الداخلية. نحن عدة رجال علينا نقل هذا الحمل اليهم. نحن عدة رجال على الحدود مثل هؤلاء الذين ينتظرون على جهاز الرصد في السفينة

أو يتوقعون الجواب على أسئلتهم، أو أولئك الذين يأملون أيضا بالعودة الى زوجاتهم...

ها قد بدت لي الحدود ذاتها التي تفصل القلق عن الحماس. أجل فالقلق والحماس يحدثان معاً. فالاثنان يشكلان الشعور بالاتساع والامتداد.

أقول لنفسي: فقط القلقون والحماسيون يسهرون معي. وليرتاح الآخرون. أولئك الذين ابتدعوا خلال النهار ولم تكن لديهم النزعة للبقاء في مقدمة الحرس...»

* * *

ولقد فكرت بالمطلق ووجدت أنه من الصعب أن يهبط الهرم من الله نحو الناس، أجل تكون أنت رئيس المملكة: واذا كان هو الرئيس بشكل مطلق عليك أن تقبله كضرورة طبيعية، وهكذا اذا أردت العودة من قاعة المشورة الى قاعة الاستراحة ضمن ازدحام قصر والدي، ستتبع هذا السلم وليس غيره، وتدفع هذا الباب وليس غيره وكيف تتأسف لكونك لم تختر طريقاً آخر بما أنه لا يدخل في شيء جديد إلى ذهنك. كما أنه لا يكون هناك أي خضوع أو جبانه أو نذالة ينبغي حلها على هذا المدار وانك ستجتازه بملء حرية طريقتك، وهكذا لا يكون هناك خضوع أو جبانه أو نذالة تخضعك لسلطة رئيس المُلك، والتي تكون مطلقة بشكل بسيط وخارج كل استبداد. لكن اذا حدث ان كنت بعد الرئيس الأول في المُلك، واذا حدث ان

كانت سلطته عليك ليست ضمن اطار ضروري، انما صدفة السياسة وثمرة الأحكام الخاصة والمناقشة أو أي نجاح لبق، حينئذ تُراه يحسدك. أجل لا يُحسد أحد الا اذا كان بالامكان الحلول محله. أي عبد يحسد أبيضَ؟ أي انسان حقيقي يحسد العصفور بهذا الحسد الذي يكون البغض «يحاول التهديم للحلول محل الآخرين؟ حتماً لا أنتقد أبداً طموحك عندما يكون بإمكانك الظهور، أجل فقد يكون علامة الرغبة في الابداع. لكنني انتقد حسدك، لأنك تتآمر ضده ومأخوذ بمؤامرتك وأهملت الابداع الذي هو بادئ ذي بدء مشاركة رائعة من قبل الفرد ضمن الكل. وها أنت تحقد عليه بعد اعطاء الحكم. أجل فانت تقبل بدون صعوبة أن يتغلب عليك الآخرون بالسلطة ولكن كيف تقبل بأن يتفوق عليك بالرأي او بالعدالة او بالشهامة؟ واذا كرهته من يدفع لك بدل عملك بالتعبير عن تقديرك؟ ان التقدير الذي يأتيك من الشخص الذي تكرهه يُعتبر اهانة. وأخيراً تبدو لك العلاقات بين الناس خانقة. لكن قبل كل شيء اذا أعطاك أمراً فهو يذلُّك.وهو نفسه يفكر بإذلالك لتركيز ملكه بشكل أفضل. عندئذ يستطيع هذا وحده أن يتناول إفطاره تجاهك بالتساوي وان يسألك ويتعجب من معرفتك ويعود يبتهج من فضائلك، وتبدو معرفته كما أن الحائط حائط دون أن يكون هناك مجال عنده للابتهاج ولأنه ببساطة هكذا هو. . .

* * *

تعود إليّ الرغبة الدائمة في بناء النفوس. كما يعود لي كره عبّاد المألوف. ففي نهاية المطاف اذا أردت خدمة الحقيقة التي تغيِّر قليلاً الذوق حسب الحضارة فلا تجد سوى الغذاء تقدمه للانسان. (وهلا تكلمت عن الماء الذي يصبح نشيداً!). يعود الفضل لبهجتك كحاكم منطقة الى هندستي المعمارية، التي لا تخدمك شيئاً الآن انما تذهلك حسب الصورة التي أسستها عن مجالي.

لا تعود أفراح زهوك الى الأشياء المتوازنة التي لا تخدمك بشيء من الوقت الراهن، والتي لا تأخذ بعين الاعتبار منها الا اللون الذي تتخذه في اضاءة مُلكي.

تلك التي استحمت خمسَ عشرة سنة في العطور والزيوت، والتي تعلمت الشعر والرحمة والصمت، تحمل وحدها بلاداً من الينابيع تحت جبهتها الناعمة. وتقول لي ان جسمًا آخر يشبه الجسم الذي أملكه يجعل من لياليك المنهل نفسه الذي تجعله العاهرة التي تدفع لها؟

أنت لا تميز كل ذلك متذرعاً بالوصول الى الغنى وجاعلاً انتصاراتك سهلة المنال، أجل انك تتكلف أقل عناية في بناء «عاهرة» من أن تؤسس ملكة. أليس كذلك؟

ربما لا تتعرَّف ابداً الى تذوق الأميرة، أجل فالشعر نفسه ليس هدية ولا مؤونة لكنه تصعيد للذات وربما لا تكون متصلاً

أبداً بأناقة الحركة، كما أنه قد يكون هناك مقطوعات موسيقية لا تقبلها لعدم توفر الجهد، لكن ذلك لا يعني أنها لا تستحق شيئاً، تقول بكل بساطة انك لست موجوداً. . .»[1].

سوف لا تتلقى أية اشارة، أجل ان اشارة الالوهة التي ترغبها هي اشارة الصمت. فالحجارة لا تعرف شيئاً عن الهيكل الذي تكونه ولا يمكن أن تعرف شيئاً، كذلك يحدث لقطعة من قشرة جذع الشجرة، فهي لا تعرف شيئا عن الشجرة ولا عن غيرها. . . كذلك انت لا تعرف شيئا عن الله. أجل ينبغي أن يظهر الهيكل للحجارة والشجرة للقشرة، وهـذا لا يحمل أي معنى لأن الحجارة لا تتكلم ولا تستقبل. فالكلام هو من مقياس الشجرة.

ذلك كان اكتشافي بعد سفري الى الله.

وحدي دائماً، محبوس مع نفسي وتجاه نفسي. وليس عندي أمل أبداً بالخروج من ذاتي ومن وحدتي. فالحجارة ليس عندها أي أمل بأن تكون غير الحجارة. ولكن بالمشاركة تتجمع وتصبح هيكلاً.

لا آمل ابداً بظهور رئيس الملائكة. فإما ان يكون قابلاً للتجزئة او لا يكون. وكل الذين يتوقعون اشارة من الله فهم

(١) ص: ٢٢٥ - ٢٢٦.

لا يفعلون الا انعكاس مرآة ولا يكتشفون فيه شيئاً سوى أنفسهم. لكن تأتيني الحرارة التي تحوّل وجهي نحو زواج شعبي، يشكل هذا اشارة الله. أجل ففي حال وجود الصمت يصبح ذلك حقيقياً بالنسبة لكل الحجارة. إذاً في حال وجودي خارج كل التجمعات، لا يكون لي أي شأن ولا أعرف الاكتفاء.

إذاً ارتض بأن تكون حبة قمح للشتاء في الهري وابقَ نائماً فيه»[1]

على الرئيس ان يظهر بشكل قاس وصلب وعنيد، يمكن اثارته بعزلة زوجة يريد ايقاظها بدافع الورع. يخترع لها صلاة يستطيع كل فرد من تجمعه أن يرددها عندما يشعر انه محاط بعزلة لا يكون سببها مجرّد انفراد بسيط.

«صلاة العزلة:

رحماك أيها السيد فإن عزلتي تثقل عليّ. فأنا لا انتظر شيئاً. ها أنا في هذه الغرفة حيث لا يكلمني أحد. ورغم ذلك فلا اترجى المشاركة فسوف أرى اني أكثر ضياعاً. اذا غرقت في الجمهور. لكن تلك التي تشبهني بوجودها وحدها في غرفة مشابهة ستجد نفسها مفعمة اذا كانت أحاسيس حنانها تفرغ مكاناً آخر في البيت. فهي لا تسمعهم ولا تراهم. فهي

---

(١) ص: ٢٢٨ - ٢٢٩.

لا تتلقى شيئا وقتيا. لكن يكفيها لأن تكون سعيدة ان ترى بيتها مأهولاً.

أيها السيد، أنا لا أطلب شيئاً يمكن أن أراه أو أسمعه. فعجائبك لم تكن أبداً للحواس. إنما يكفي لكي تشفيني أن تنير روحي عن مسكني...

... فالعزلة، أيها السيد، ليست إلا ثمرة الفكر العاجز، فهو لا يسكن الا وطناً واحداً يُعتبر معنى الأشياء. هكذا عندما يكون الهيكل معنى للحجارة، لا يكون له أجنحة الا لهذا الفضاء. فهو لا يبتهج ابداً بالأشياء بل يبتهج بالوجه الوحيد الذي نقرأه من حين الى آخر والذي يقيم علاقة ترابط بينها. اجعلني فقط ان اتعلم القراءة. حينئذ انتهي من عزلتي أيها السيد»[1].

ان وجه الرئيس كما ارتسم في كتاب «القلعة»، يتخذ، بدون شك، اتجاها خرافياً أكثر منه واقعياً. لكنه أتاح لسانت اكزوبري امكانية اعطاء وجه لهذه الفكرة التجريدية التي تختفي تحت كلمة انسان. فور كتابتها بأحرف كبيرة.

ففي «طيار الحرب» يلاحظ سانت اكزوبري كم هو صعب التكلم عن الانسان. تتدافع الفكرة مع الكلام خاصة اذا

(١) ص: ٣٠٤-٣٠٥.

اعتبرت الأشياء على المستوى الميتافيزيقي. وهـل يتوافق تمييـز الانسان (بأحرف كبيرة) من الانسان (بأحرف صغيرة)، وكذلك يبقى التمييز ظاهرياً حتى في فكر سانت اكزوبري، فالانسان (بأحرف صغيرة) هو التمثيل المشترك لما نحن عليه بينما الانسان (بأحرف كبيرة) هو التمثيل المثالي لما نستطيع ان نكون. ففي كل مرة يبدو سانت أكزوبري وكأنه يعتبر هذا التمييز ذات أهمية قليلة، أجل، بالنسبة اليه لا نستطيع ان نكون الا بقدر ما يمكننا أن نكون وغير ما نحن عليه. هذا هو الموضوع المقصود في مثل الحجارة التي تصبح مادة الكاتدرائية، مع الاستفادة من المعنى الروحي الذي يرتبط بها.

فالرئيس هو المترجم الأمين لاعتقادات وإيحاءات سانت اكزوبري، ولا أحد يستطيع معارضته. كان كاتب «طيار الحرب» مقتنعاً بأن الناس يستطيعون التوصل الى وحدة روحية بإزالـة التباعدات في الآراء السياسية والدينية كما تظهـر في المجتمع الحـديث. عندمـا كتب «القلعة» رغب ان يـوحي الى مواطنيـه بأسلوب للسيطرة على الأرواح وذلك بإعطائه للسلطة اساساً صوفياً. الا أنه تجنب المسألة الأساسيـة المتعلقة بتبـرير مهمـة الرئيس. ألا يمكن مقارنة السيد برنار في «القلعة» مع سلطان من الحق الالهي؟ ان شعبه سيتقبله كحاجة طبيعية أو كمشرِّع يعرف أكثر من غيره ما يجب فرضه على الناس كي يعيشوا بسلام، سعيدين وفخورين بالخضوع لإرادة معصومة من الخطأ. هكذا

لكي يكون مفهوم التجمع او المُلك فكرة تجريدية، اضطر سانت اكزوبري للعودة الى رأي الرئيس الكيفي الذي يبني مجتمعاً من الرجال يخلق عادات ومراسم وتقاليد للشرف والحب. بفضل مثل هذا الحكم تتخلص الأفراد من الأخطاء المتأصلة فيهم.

حاول سانت اكزوبري، وهو مسحور بفكرة الانسان المختار كمقياس للشعوب ان يظهر كيف ان الرئيس له الحق بممارسة سلطة مطلقة على أفراد تجمعه ليلزمهم في تبني نهج من السلوك متوافق مع المبادئ المتعلقة باستمرارية التجمع. اذا كان ميالاً الى تعظيم الطغيان، فهو يتطلب على الأقل من الطاغية المنتظر صفات اعتدال ومحبة مثل هذه، بحيث يبدو هذا كأب رائع لعائلة كبيرة أكثر منه كظالم متحجِّر العاطفة يتصرف دون أية خبرة. طبعاً سيتقبل الحكمة القائلة «كل من يحب جيداً يعاقب جيداً». وفي مجتمع حيث ينبغي ابعاد الفردية، يصبح من الصعب اكتشاف قاعدة تكون ملائمة وفعّالة. حسب رأي سانت أكزوبري، من الملح تحرير الانسان الأساسي من الخرافة حيث المذهب الانساني الحديث يميل الى نبذه، وذلك بنقل معطيات للناس، من شأنها أن تجيز لهم إخضاع الانسان الموجود فيهم، الانسان الذي يوحي به الفلاح والحداد والبستاني والنجار وعامل المعادن والمحارب والموسيقي والشاعر الخ... عندما يحمل كل فعل من الأفعال التي تفرضها مهنتهم معنًى. وتكمن محبة الناس بادئ ذي بدء بجعلهم قلقين على الانسان، بعد ذلك يحوِّل

هذا القلق الى هدوء ورصانة. ففي «القلعة»، يطلب الرئيس من أفراد تجمعه ان يكونوا مستعدين لسفك دمهم دفاعاً عن الأمير الذي يبجلونه، أجل، فمن خلال التجربة اليومية للموت يجدون معنى السلام الحقيقي. ان الجزع من الموت لا يؤدي الا الى التأمل في الموت، لكن العمل الذي يؤدي الى الموت يتجاوز ذلك الذي يرزح تحته الى ان ينتهي بالنصر، ويجعله يحيا كبطل اسطوري. انه رنين نيتشه يتردد بدون شك: قال زارادشت «أحب اولئك الذين لا يعرفون ان يحيوا ليتواروا، فهم يتجاوزون ما يأملون». فالتاريخ يقدم لنا العديـد من الأمثلة عن رجال ارتضـوا مثل هـذه التضحية بغيـة تحقيق مثلهم الأعـلى، من المسيحية الى النازية تكون اللائحة طويلة اذا اردنا نشرها.

كره سانت أكزوبري هتلر والنازية لأنه «هدّم ميزة العلاقات الانسانية»[1]. لأنه أكّد على أفضلية عرق وأفضلية امة على آمة اخرى. لكن المانيا النازية يمكنها ان تجد في هتلر «رجل العظمة» ويقدم الرئيس في «القلعة» مناسبات مشابهة لأفراده. في كل مرة لا يكون هدف الرئيس ارغامهم عـلى التصرف بـوطنية. واذا وضعنا حدوداً للمُلك الذي يصفه سانت أكزوبري ونحن نتصور ولايات مجاورة مسوسة بالقوانين نفسها التي أصدرها الرئيس، يمكن الاعتقاد بأن مثل هذه المنازعات تصبح غير معقولة بالنسبة

(١) مختارة من رسالة ذكرت سابقاً. ج پالبسيه.

لهؤلاء الذين عارضوا او يعارضون ايضا السلطات الكبيرة الراهنة، ذلك لأن المسؤولين عن هذه الولايات يترفعون فوق هذه التناقضات، وقبل ان يفكروا بالقتال يدركون ان تراث الأمة الواجب الدفاع عنه يكمن فيما هو شامل فيهم وفي التجمعات، وليس للمصالح الخاصة بكل منهم.

لا شك أن الحكمة التي تُستنتج من كتاب «القلعة» لا يمكن الا ان يكون لها بعض التشابه مع الماركسية اذا حولنا الانسان الى المجتمع. يكره سانت أكزوبري النزعة الى الشمولية. إلامَ تؤدي الماركسية؟ حسب قوله. لا يعتبر تجمع الناس ككل اجتماعي ينبغي تأمين خدمته من قبل الأفراد: يتمنى لو ان الناس تؤسس هذا التجمع من تلقاء أنفسهم وان تأسيس هذه الأخيرة قد يكون بإمكانه ان يضحّي في سبيل فرد واحد من اعضائه. لكن نهج الماركسية يبدو كنهج المسيحية وهو قريب ايضا من نهج الرئيس في «القلعة» وما يطلبه من الأفراد. واذا حاولنا أن نعمل تقارباً بين المسيحية والماركسية والروحانية الاوكزوبرية، فلا نخطئ ابداً اذا أكدنا ان سانت اكزوبري وضع جسرا فوق الهوة التي تفصل المسيحيين عن الماركسيين. فكل عمله يعتبر بمثابة دعوة ملحة للمعالجة - وربما لهذا السبب بالذات كان سهلا بالنسبة لأحزاب سياسية متنافسة في التنويه فيما يتعلق بمواضيعهم بتلك المجلة أو بغيرها لهذا الكاتب الذي سيطر دائمًا على الجماعات.

أعلن سانت أكزوبري في«رسالة الى رهينة»: «ان السياسة لا يكون لها معنى الا اذا كانت في خدمة الوضع الروحاني» وقد كشف لنا بواسطة الرئيس في«القلعة»كيف يستطيع هذا الوضوح ان يُضيء الفكر البشري.

يكون من العبث نقد هذه الروحانية التي يكتسب الانسان من خلالها شرف الامارة كما نوه عنه سانت اكزوبري. يمكن التأكد دائماً، بالمنطق، مما نريد ان نعتبره صحيحاً، بينما يتوافق غالباً بأن نتساءل لماذا نرفض التأكد من اننا على خطأ. لكي نفهم محتوى الرسالة التي خلفها لنا سانت أكزوبري، علينا ان ننظر في الاتجاه نفسه الذي ينظر فيه هو، دون الاهتمام بالحقائق المتناقضة التي يصطدم بها عقلنا. عندما يختفي الوعي أمام الكلام بسبب تناسي قيمة الأفعال.

«فالحب الاسمى» الوحيد الذي لا يُقهر، يقود مباشرة الى شاطئ اليم الكبير، أجل فهو يدلّك فوراً على اللانهاية وعلى الخلود»[1]. كتب «أمباله»: تأثر سانت أكزوبري بهذا الحب بالذات الذي يقلب أوضاع الضمير وذلك بخلق الدوران المطلق فيها، لكنه استطاع اعطاء مادة لهذا الشغف لسلامة الناس التي كانت عنده أكثر شمولية مما كانت عند باسكال.

(١) جزء من صحيفة الانتيم الفرنسية (L'intime).

روحـانية الانسـان: ذلـك هـو السـر العجيب لشغـور المعتقدات الذي قدمه للناس ايمان سانت أكزوبري الذي تأسس على الابتسامة التي هي ثمرة الصمت والحب.

الطفولة المستعادة

«...تستطيع أن تبني الإنسان في طفولته وذلك بتعليمه أولاً التبادل إذ إنه لا يمكن أن يكون خارج التبادل غير التصلب»[1].

أبعد من العمل ومن الروحانية، هناك، عند سانت اكزوبري قصة البراءة أو الطفولة المستعادة.

أحسّ سانت اكزوبري، منذ فتوته، أنه منفي عن طفولته. وقد تذكر غالباً خلال مؤلفاته حنين تلك السنوات من اللهو حيث نجد أنفسنا محاطين بالأحلام ومسترسلين للعناية اللطيفة لإحدى الجنيات التي تعطي شكلاً لعديد من الأشياء غير المرئية والتي نتنبأ بوجودها حولنا.

اهتم سانت اكزوبري كثيراً بالأولاد وكان عنده لذة قوية في إثارة حشريتهم، إما أن يسرد لهم قصصاً جميلة أو أن يكتشف لهم ألعاباً معقدة. وقد توجه إليهم بلغة تناسب مستواهم فيأسر انتباههم ويصبح بسرعة صديقهم المفضل. ربما

---

(١) القلعة، ص١٠٢.

يجد فيهم - النضارة - التفكير ورقة النفس اللتين لم تتركاه مطلقاً، حتى في أحرج ساعات وجوده. ما هو أكيد مدى سعادته عندما يحبه أو يُعجب به مستمعه الصغير، وردود فعل جمهوره يجب أن يكون بالنسبة إليه تدريب عميق، أجل فالطفل بالنسبة إليه هو ذلك المخلوق الذي يرى بقلبه داخل الأشياء ويهزأ بالظواهر ويخلق عالماً خيالياً حيث كل شيء يبدو جلياً.

مع «الأمير الصغير» - قصة تسلب لبّ الأشخاص الكبار - طاب لسانت اكزوبري إحياء عالم الطفولة هذا الذي اعتقد أنه ضاع إلى الأبد متأملاً بذلك الاقتراب من صديق بحاجة إلى مواساة.

وضع في هذا الكتاب كل ما عنده من نقاوة وصدق، دون أن يتناسى المسائل الكبرى التي اعتاد معالجتها في كتبه الأخرى. من ناحية ثانية يرغب ألاّ تتم قراءة «الأمير الصغير» باستخفاف. كيف يمكن ذلك؟ فبطله جميل للغاية بحيث أن القارئ يبتهج بنزوته الرائعة التي تتضاعف برصانة مثيرة للغاية.

يظهر «الأمير الصغير» بمظهر وكأنه سلسلة من الحِكَم: لا تعود وحدة العرض إلاّ لصوت الشخص الأساسي في الكتاب وهو - «شبه رجل صغير خارق» هابط من السماء يطرح أسئلة ويروي قصته لطيار متوقف في الصحراء بعيد أكثر من ألف ميل عن كل المناطق المأهولة.

إن موضوع الكتاب الأساسي هو العزلة المهزومة

بالصداقة. يكشف لنا المؤلف أنه عاش وحده «بدون شخص يتكلم إليه بصدق» حتى ظهور شبه الرجل السحري الصغير الذي طلب منه أن يرسم خروفاً. نرى بعد ذلك أن الأمير الصغير ليس سوى الطفل الصغير الذي يعيش داخل سانت اكزوبري ويمنعه من أن يصبح شخصاً كبيراً غبياً لا يعتقد إلاّ بالأرقام والبراهين والمنطق.

يقطن الأمير الصغير في نجمة ضيقة، حيث يستطيع أن يشاهد عدة مرات غروب الشمس: يكفي أن «يسحب كرسيه عدة خطوات». يعتني بوردة «فخورة» ويقتلع نباتات «الباوياب»[1] ويتسلق البراكين الثلاثة لكوكبه، هذه الاهتمامات تجعله حزيناً أحياناً. قرر بعد مواجهة صعوبات مع وردته زيارة كواكب أخرى. ففي المقر الأول كان ملكاً وفي المقر الثاني كان فقيراً وفي الثالث اهتمّ بسكير حزين وفي الرابع انتمى إلى رجل أعمال وفي الخامس التقى مشعل مصابيح همه التقيد بالتعليمات؛ وفي السادس كان عند جغرافي نصحه بالسفر إلى الأرض، كوكب له شهرة كبيرة. وعند وصوله إلى الأرض تعجّب الأمير الصغير لأنه لم ير أي شخص، لكنه التقى بحية؛ فأوضحت له بأنه في الصحراء: وقد يكون الفرد وحده حتى بين

(١) نوع من الشجر الاستوائي، عريض الجذع، داخل ثمرته لب يؤكل، المترجم.

الناس. بعد ذلك يعلمه ثعلب كيف تصنع الصداقة بالتآلف، أي بخلق علامات؛ فالصديق هو إذن: «وحيد في العالم» أجل نحن لا نعرف إلاّ الأشياء التي تآلفنا معها، وعندها نصبح مسؤولين عما دجّناه. وبعدها التقى محوِّل سير خط حديدي الذي يصنف المسافرين، كما التقى بائع أقراص ضد العطش بعد ذلك التقى الطيار النائم قرب طائرته. لكن الأمير الصغير عليه أن يعود إلى كوكبه. لدغته الحية في عرقوبه. فوقع الولد بهدوء على الرمل واختفى جسمه، أما الطيار فبعد أن انتهى من ضبط أدوات طائرته عاد إلى عالمه حيث لا يعيش وحده لأنه يعرف أن عنده الآن صديق في النجوم.

كل مغامرة من مغامرات الأمير الصغير تكشف عن مظهر ذي حكمة. فحكمة الوردة وحكمة الثعلب هما الأكثر إيحاءً إذا لم يكونا الأكثر معنًى. فقد تآلف الأمير الصغير مع زهرته؛ وأصبح مستعداً لتقديم حياته والتضحية بها أو بتغيير جسده في سبيل خلاصها. فإذا لم يعد إلى كوكبه فستبقى وردته بدون ري ولا حماية، هي المسكينة الضعيفة وستنطفئ بشكل يائس، وهو المسؤول عنها. وهكذا يرتضي القبول بالموت في سبيلها والحية عندما لدغته فهي تعيده إلى الأرض التي أتى منها». لكن الأمير الصغير لم يفهم ما هي الحياة لو لم يأتِ الثعلب ويوضح له معنى الأشياء من خلال عادات الصداقة والحب بمنحه سره: «لا نرى شيئاً طيباً إلاّ بالقلب. فالشيء المهم لا يمكن رؤيته

بالعينين». فالحكمة المستخلصة من هاتين الواقعتين من القصة تعني أنه بإمكان الحب والصداقة أن يحررا الناس من عزلتهم وذلك لأنهم يرتكزون على العطاء الذاتي كعملية تبادل وهي الفكرة الموسعة في مؤلفات سانت اكزوبري الأخرى.

وفي «أرض الرجال»، يخبرنا المؤلف، أنه في إحدى رحلاته فوق الصحراء توقف في وسطها على مسطح مرتفع، يتعذر الوصول إليه من طرق على الأرض «وحيث لم تطأه بعد رجل إنسان أو حيوان». هذه المصطبة الطبيعية تتكون من كومة كبيرة من الصدف الصغير، كانت تمتد هنا مثل خوان تحت السما لقطاف غبار النجوم وتنتظر ربما وعي إنسان كي يأتي ويعكّر صفة هدوئها. ويحمل هذا الوعي الشاهد على الحياة في مملكة معدنية حيث جمالها وقساوتها ونعومتها تبقى حتى الآن مجهولة حكمًا. وهكذا يستخلص الولد والفنان والعالم من سهاده المؤقت هذه الأشياء التي لا يشك أحد بوجودها والتي تنتعش من سلطة سحرية وذلك بمنح هذه الأشياء صفات خاصة.

وهكذا، فمن الرئيس في «القلعة» حيث يسعى لإيقاظ روح الإنسان الذي يسكن داخل أفرادها، إلى «الأمير الصغير» الذي يغرق في الصحراء حيث يكتشف بئراً مخبأً في مكان ما.

فقد تحدد سانت اكزوبري من خلال شخصيات الرئيس والأمير الصغير، وبالفعل كان في داخله شخصان حيمان

يتصارعان. الأول متعطش للمطلق وللنظام وللثبات وللصلابة ويريد إعادة تسليح الإنسان بتثبيته في الأرض. والآخر، بالعكس يجُرِّد الإنسان من سلاحه ويغلق عليه في الأحلام فيحوِّل شكل الواقع ويهزأ بالنظام ويتقبل ضعف الحياة دون الانزعاج من أن يصبح غير ما هو عليه. لكن كل واحد منهما يمد يده للآخر، فوق كل البراهين المتناقضة التي يجمعها كل منهما مثل كومة من الحجارة ويشهر سلاح اللغة بشكل أقوى، أجل فهم يدافعون عن الحب نفسه والحاجة الأصلية نفسها ويبحثون بورع واحد عن حقيقة لا يبحث عنها العاديون، متوسطي المعرفة، وهذه الحقيقة لا يمكن وصفها بدون الارتكاز على اللغة التي هي مصدر كل الخلافات». إذا كان أحدهما حزيناً يهرع الآخر لتعزيته، ولا يمكن لأي نزاع أن يغيرِّ عاطفتهم المتبادلة. فعلى هذا النموذج من الصداقة الداخلية، يتمنى سانت اكزوبري أن تتم صداقة الناس.

من الفضول جداً أن نلاحظ أننا في حال كنا بخطر الموت، وأننا على وعي بذلك، نرى أن كل ذكريات الطفولة تمر في مخيلتنا بسرعة فائقة كسلسلة متتابعة لصور رئيسية تختصر كل الوجود. وفي«طيار الحرب»يسرد لنا أنه في الوقت الذي يطير فيه أرَّاس أطلق د.س.أ النار على الطائرة التي يقودها وعلى فريق العمل الذي ازدادت الخطورة عليه؛ فمن لحظة إلى أخرى كادت

الطائرة أن تقع على الأرض وتتحطم في الحقل أو تنفجر وسط السماء وعندها يكون سكون الخلود:

«ففي هذه اللحظات تبدو الطفولة لطيفة.. وهذا ما يزيد الخطر لكنني أبقى داخل الأشياء. أتصرّف بكل ذكرياتي.. أتصرف بذكريات طفولتي»[1].

وهكذا تعود الطفولة إلى الظهور على عتبة الموت. فهي تسهر كخفير على أسوار هذه القلعة التي هي الحياة. إنها تحمي الإنسان وتقدم له ضمانة على أعلى مستوى من قيم الروح، أجل إنها مصدر أو بالأحرى أساس يحتوي بالقوة كل ما يتخذ شكل جسد، ميول، أحاسيس، رغبات، مؤخراً في مرحلة النضج. فالولد ليس ذلك الذي يتضح باديءَ ذي بدء «بالأنا» في حقيقة واقعه، والذي يرتمي في المستقبل قائلاً: «سأصبح.. طياراً، بحاراً، مهندساً، طبيباً الخ..؟ فالولد بشكل أساسي هو ذلك الذي يريد أن يصير والعالم الذي يتحرك فيه دون أن يستطيع أن يميز جيداً بين الواقع والخيال، فهو يؤسسه على هذه الحاجة للوجود أي أبعد مما هو حقيقة. وفي ألعابه يجسِّد الطيار والخيال والبطل الذي يحلم وهو لا يدرك أنه يلعب لعبة الطيار أو البطل لأنه ادّعى كل صفات شخصه. واعتقد فوراً أنه أصبح طياراً أو بطلاً. لا يلبث هذا الاعتقاد أن يتحوّل إلى يقين تدريجياً

(١) انظر طيار الحرب، ص١٤٨-١٥٥.

عندما يقوم بالنشاطات الرئيسية التي يُفترض أن ينفذها الطيار أو البطل. مهما كان بدائياً هذا الاعتقاد عند الولد الذي يتجاوز ذاته، فإن سانت اكزوبري يحترمه.

إذا كشف عن قلبه لأمه، يجد أن عالم ذكريات الطفولة يبدو له دائمًا «بيأس أكثر حقيقة من الآخر» هذا يعني أن كل رغبة وكل شعور يحفظ فيه كل قوته وذلك بترجمة ما عند المخلوق من فرادة وبراءة ومما يتعذر بيانه.

فسانت اكزوبري مثل الأولاد، عنده الاستعداد الدقيق لتحرير الأشياء من مظاهرها الخارجية وتسليط الأضواء عليها من الداخل، ذلك يكشف أقل النتوءات والظلال العابرة التي لا تستطيع رؤيتها عيون الأشخاص الكبار. استطاع أن يحدد طفولته حتى موته. لذلك لم يشعر بأية صعوبة في استرجاعها أكثر نضارة وأكثر ارتواء من النبع الذي تكلم عنه غالباً وسط عالم يُميت من العطش.

نقف أحياناً متعجبين أمام الاستبسال الذي أظهره سانت اكزوبري في تواجده المشترك مع ذكرياته، كأنه يخاف من ألاّ يكون سوى الانعكاس الصحيح لصورته الخاصة أو بالأحرى كأنه يمنح الذاكرة قدرة انعكاس كقدرة المرآة. عندما تأتيه صورة لذكرى معينة، يأخذ بعين الاعتبار محتواها الإبداعي، ومن هذا الحدث لا تشير الذكرى للماضي فقط بل تشير إلى الفعل

الحاضر. لكن وراء كل ذكرى هناك دائمًا رغبة خفية. وهذه الذخيرة من الرغبات الثابتة في الزمن، مثل الكثير من الافتراضات التي ينبغي أن يضعها الوعي موضع التنفيذ عاجلاً أم آجلاً والتي يطيب لسانت اكزوبري إعادة اكتشافها بتذكره لطفولته.

في العمق نرى أن كاتب «الأمير الصغير» يحب نفسه وهو طفل، إذ نجد عنده صفحات كثيرة حول رسائل الطفولة[1]. حيث يخترع ألف ذريعة ليثير الشفقة على نفسه. «لي الحق بأن أجري محادثة بيني وبين نفسي»[2]. كتب مرة إلى أمينة سره مع هذه الطهارة الجميلة التي ترافق حركاته خلال الغيظ.

إذا كان سعيداً بتصرفه في رغباته فهو متألم من عدم الاهتمام الذي يقابله فيه أحياناً الأشخاص الذين يتمنى مشاركتهم. بالفعل، هو بحاجة لأن يُحب ويُفهم، ذلك لأنه لا يعرف جيداً كيف يحمي نفسه.

ما يُدهشه عند الأولاد، هو غالباً التزامهم الكلي بمعتقداتهم وقدراتهم الفريدة في وضع الممكن محل ما يبدو غير ممكن، وقابليتهم العاطفية الرائعة التي تتيح العطاء من النفس إلى الأشياء التي تعتبر بالتحديد جامدة. يكتشف فيهم، في الحالة

---

(١) رسائل أرسلت إلى رينه دي سوسّين، (١٩٢٣-١٩٣١).

(٢) رسالة الطفولة، ص٨٣.

الطبيعية، هذا الدفع من الحب غير المضبوط الذي يجب أن يقود الناس إلى التكامل في بحث عن النقاوة حيث تتواجد بشكل تعبيري قيمة وضعهم ومعنى شموليتهم. يرى الأولاد في الأشياء رؤى داخلية ذاتية، يتآلفون معها، ويسعى سانت اكزوبري كي يظهر لنا كيف يمكننا أن نتبنى وجهة نظرهم، وكما يدل عليه بصدق ر.م. البيريس بالنسبة لسانت اكزوبري: «إن مهمة الرجل هي صبيانية: تكمن في تدجين العالم»[1].

(١) في سانت اكزوبري، ص٢٢٥ (الطبعة الجديدة).

البحث عن أسلوب

«إن العودة إلى الوعي، تقتضي اكتساب أسلوب».

لم يخفِ سانت اكزوبري ارتيابه تجاه «رجال الآداب» الذين يفكرون أكثر مما يفعلون، وهم، رغم لباقتهم وموهبتهم، يقعون أحياناً بقفص الجمل الرنانة والمتوازنة، المملوءة بالكلمات النادرة والتعابير المتكلفة ولكن بدون معنى قيِّم. إنه يكره هؤلاء الأدباء الذين ينزوون في مكتباتهم ليخرجوا منها هذه الصيغة أو تلك الفكرة غير المعروفة ويتبنوها كاختراع لهم، كما يحدث في مخزن قطع التبديل. يهزأ سانت اكزوبري من هذه السلطات الأدبية المزعومة التي تفضل الاصطناعي البراق والشاذ على كل ما هو طبيعي أو الذين يقومون بعرض ثقافتهم مع شيء من الوقاحة.

«الكتابة بالنسبة إليه هي نتيجة». يعني اتخاذ موقف معين تجاه العالم وإيجاد تواتر للحياة أو طريقة وجود تكون أمينة قدر المستطاع للمبدأ المولد الذي أوحى بها. ففي كل مرة قبل البدء بالكتابة، يجب أن نعيش المبدأ، نتعلم أن نرى؛ بشكل عام ينبغي أن نكتسب الخبرة عن العالم الذي يعطيك حق تأدية الشهادة.

يتناول سانت اكزوبري الأدب «كأداة للحضارة» حسب تعبير روجه كالو. يعود الفضل لها ولمختلف أشكال النشاط الفني بإبعاد العالم عن النسيان. يمكن للناس أن تجد فيها مؤشر استمرارية الانسان، عندما لا يكتشفون بأنفسهم ويستخلصون منه تعليمًا أخلاقياً من بين أفضل التعاليم إفادة. لكن إذا كان الأدب مركباً من روائع تنقل إلى الأجيال القادمة ذكر المآثر الجديرة بالذكر، وتضارب الأفكار والأحاسيس المعبرة بشكل خاص، إذا كانت تحدد الأسلوب أو الفكر الخاص بكل جيل، وإذا كانت تشكل بإحدى أشكالها ما هو أكثر حيوية وأكثر خصباً في التاريخ، ليس لها معنى إلاّ من خلال الاهتمامات الأساسية لهؤلاء الذين لم ينقطعوا عن المشاركة في تأمين بقاء أساسي. عرف سانت اكزوبري وزن المسؤولية التي تلقى على عاتق الأديب عندما يبدأ التداول بالأفكار الذي يشبه التبادل بالأسلحة. فلربما أدى فارق لغوي إلى أن يكون أكثر إجراماً من خطأ الرماية. لهذا السبب أراد أديب «القلعة» أن يدفع من شخصه لكي يكون لكل هدف من أهدافه محتوى حي، وبحيث ان كلماته لا تتضارب مع واقع الأحداث التي يصفها لنا. من نزاهة عقلية غريبة بالفعل يتمنى لو أن حياته تضمن تحقيق رسالته، وكذلك من مجابهته للموت، تخلق لغة لا تخدَع.

«لا تنسَ أن تعبيرك هو فعل» هكذا أوصى. كأن على الخطيب أو الكاتب أن يتعهّد كلياً بجسده وروحه في عمل

يجعله يفكّر. وعملية إحداث ارتباط ضيق بين الفعل والفكرة يعني هذا بالنسبة لسانت اكـزوبري، امتلاك الأسلوب. بينما بالنسبة له، لا يمكن تمييز الفكرة عن العمل فالواحدة منها تعتبر ضمانة للأخرى وبالعكس. يقول في مفكراته: «في الأسلوب هناك الطريقة وهي التي تشكل العمل»[1]. يبدو أنه يتوقع من الطريقة إرادة تحقيق شيء ذي ميزة تدفع الإنسان إلى أن يضع دائمًا موضع التنفيذ أفضل ما عنده. لقد رأينا ما كان عليه أسلوبه في الحياة، وما كانت الدقة والتفاني اللذان يفترضهما، وإلى أي مستوى أخلاقي يجب أن يرتفع. وعلى المستوى الأدبي نسترجع أسلوباً متطابقاً يوضح بشكل رائع هذه الغـزارة من الأحاسيس المتناقضة وهذه الحاجة المدهشة للنقاوة، كل ذلك يصفي على إنتاج سانت اكزوبري رنّة مثيرة ومطمئنة في الوقت نفسه.

أغلبية الكتّاب الكبار عندهم أسلوب عمـل. ينظمـون أفكارهم، يضعون تصميمًا، يفكرون يحسبون ولا يطلقون العنان لأقلامهم إلّا بعد أن يتأملوا طويلاً في هدفهم؛ بينما البعض الآخر، ينطلقون بفعالية وسائلهم بدون تردد فيجازفون بالكلمات والأفكار. وهكذا يجددون أنظمة كتابة شخصية لا تلبث أن تزول فيختفي النسق ويبرز الأسلوب. وبالتقليد مع

---

(١) القلعة، ص١٢٠.

صيغة أرسطو: «العادة طبيعة ثانية» يمكن القول ان عند هؤلاء يصبح الأسلوب طبيعة ثانية. لكن سانت اكزوبري لا يحضر هذه الأفكار قبل البدء بالكتابة. فخلال تـأليفه للنص تتبلور فكـرته تـدريجياً ويجمـع الوسـائل الـلازمة ويستخـرج البينات ويكتشف وزنه الخاص دون أن يكون عنده تجسيـد أساسي مسبق. فلا يركب جملته حسب ترتيب مدرك سلفاً. يخضع لدافع داخلي يحرضه على الكتابة مباشرة. وعند الانتهاء يأخذ الإنتاج بالضرورة النسق والتصميم المناسبين له. «كل ما يتم إبداعه وكل ما سيُبدع يكون منطقياً وليس كل ما هو منطقي يتم إبداعه». يؤكد على ذلك في مفكراته[1]. فالتصميم هـو كل ما غيّره بـلا انقطاع «إلى أن يتنـاسب كل مـا هو لفـظي مع الأساسي غير اللفظي». بسبب خوفه دائماً من أن يكون مجرّداً يحاول خلق لغة تعبير محسوسة بلا تصنع، وتوحي بشكل أفضل حركة الحياة نفسها مع اضطراباتها وخفاياها وجهودها.

عندما تقرأ كتبه تشعر وكأنه يكتب بسهولة فائقة، وأن أسلوبه كان بديهياً. بدون شك، يشعر بالاسوداد بسرعة من عشرات الصفحات، عندما يكون في حالة إثارة ذهنية تامة، لكن هذه المحاولة الأولى التي أطلق عليها اسم «الغلاف» هي بعيدة جداً عن الشكل النهائي الذي سيعطيه لمؤلفاته. بشكل

---

(١) ص١٣٤.

عام يهاجم موضوعه في وقت واحد متأملاً التركيز بصدفة وحيه وذكرياته على النقطة الأساسية أي القطب الجاذب الذي يحدد معنى الإنتاج الذي يسعى إلى إدراكه. هذا برهان قاطع يدل على ثقة كبيرة بالنفس بدل الاسترسال إلى دوران الكتابة. لكن سانت اكزوبري يعود إلى مسوداته يعمل بقساوة على صياغة نصوصه حتى لا يبقى نقص في إنتاجه، وعلى ألاّ يقضي كل ضعف في الأسلوب على قوة أفكاره. مضحياً - بدون أي أسف - بهذه الكلمة وبتلك الصورة، ومحوّلاً أسلوب جملته تجاه كل ضعف في المحتوى. وأحياناً، رغم تحويلها، لا تكفي طموحه مطلقاً. وفي حال عدم تمكنه من إبدال كلمة نظراً لعدم قبوله بها، يحملها معنىً آخر أكثر غنىً، وربما أكثر قرباً للواقع ولا يتأخر عن إعطائها تعريفاً.

وقد استخدم بعض المفردات بشكل رائج، كل مرة يكون هناك أفعال أو أسماء أو صفات تنال حظوته مثل: ربط - بالغ - أسس - بدّل - خزّن - وزن - فسد - منذ الآن - شجرة - تكريمي - عيد - ينبوع - حبة - ماشية - صلصال - أبدي - لا ينضب - صلب - مدهش - غير مدرّك بالحواس - بائد، الخ...

يحترم سانت اكزوبري لغته احتراماً عميقاً، يبدو تعيساً للغاية عندما يُلفت انتباهه إلى العيوب النادرة التي تسربت إل

نص يكون قد اعتنى به جيداً. ولقد سجَّل جورج پاليسيه عدداً منها، مثل (Bruissa) التي تستخدم اليوم في تصريف فعل (Bruire)، أو تكلم مع بدلاً من تكلم إلى، لكن هذه الأخطاء لا تلامس إلّا «الأقوياء في الموضوع» المنقبين. عمل سانت كشاعر، ونحت هذا العنوان يتيح لنفسه بعض المجازات اللغوية وبعض الصيغ المجازية. سيبقى النثر عنده أحد أجمل أنواع النثر الذي كتب في عصرنا، والأكثر كلاسيكية.

يلاحظ تطور عجيب في أسلوب سانت اكزوبري. فمن الأسلوب القصصي في روايتيه: «بريد الجنوب» و«طيران الليل»، إلى الأسلوب الخاص في «الأمير الصغير» ومن ثم إلى الأسلوب التوراتي في «القلعة»؛ بذل سانت اكزوبري ما في وسعه لحل مشكلة فعالية الكلام. هل ينبغي التأثير على مخيلة القراء وإثارتهم وتحريرهم، أم ينبغي تدريبهم لاشعورياً على التأمل في وصفهم؟ ففي الحالة الأولى يلفت انتباه القارئ العادي أسلوبه الشيق في كتابة التقرير، أما في الحالة الثانية فيبدو نسق التجربة والأسلوب الشاعري الذي يحث على التفكير. لقد أبدع سانت اكزوبري في أسلوب التقارير، تكفي قراءة المقالات الواردة من إسبانيا أو من الاتحاد السوفياتي حتى نتصوره. لكنه موهوب أكثر للأدب بمعناه الصحيح. وهذا ما أتاح له مزج الأنواع بسعادة نادرة. يمكن تصنيف كتبه تحت ثلاث فئات: الكتب المستوحاة من مشيئة الواقع، والتي لها طابع التقارير المشهورة مثل «بريد الجنوب»

و«طيران الليل» والكتب التي تقدم البينة والعرض للحجج الفلسفية الواجب تحليلها، مثل «أرض الرجال» و«قائد الحرب» و«رسالة الى رهينة»، وأخيراً الكتب ذات الطابع المجازي التي تخدم الأهداف التعليمية عند المؤلف، مثل «الأمير الصغير» و «القلعة».

إن النجاح الذي حققته كتب سانت اكزوبري - فيما عدا «القلعة» -داخل فرنسا وخارجها، يؤكد أنه وفّق في الوصول إلى لغة فعّالة. من العبث مدح هذه المؤلفات مرة أخرى، وبشكل خاص «طيران الليل» و«أرض الرجال» إذ استحقّ بها مجداً عالمياً وتقديراً من قبل أشهر الكتّاب، مؤلفات اعتبرها سانت اكزوبري «كتمارين» بالمقارنة مع النتاج الكبير الذي باشر كتابته: قصيدته النثرية - «القلعة».

فكتاب «القلعة» هو عمل غير مستكمل. أملى سانت اكزويري جزءاً منه على آلة فوتوغرافية والجزء الآخر كتب باليد. فقد مات قبل أن يتسنى له «توضيحه». إذاً فمن الصعب معرفة الشكل النهائي لإخراج هذا الكتاب. من الممكن أنه كان سيحذف منه ثلثه. وجهت انتقادات كثيرة إلى ناشره لأنه طبع بالتفصيل مخطوطة غير كاملة، حيث تتابع الفصول بدون ترتيب، وحيث ان عدة صفحات تحمل معاني غامضة مما يؤدي إلى الضرر بسمعة وامتياز المؤلف الذي يهتم بإتقان، وحسب

الأصول، بمؤلفاته. لا نعتقد أن نشر «القلعة» شوَّه أهداف مؤلفه. فقد كرر هو بنفسه إلى رفاقه أنه يكتب كتاباً «سيُنشَر بعد وفاته». وهكذا ظهر كتاب «القلعة» كنوع من الوصية الفكرية التي تكشف لنا المبادئ التي على أساسها تركّز فكر سانت اكزوبري، وبشكل خاص كيف يتوقع استخدام الأسلوب.

يقول پول ڤاليري: «تكمن الصعوبة في إمكانية رفض ما يمنعك من تخفيف ذاتك - دون رفض ما يجبرك على تحقيق الذات في الوقت نفسه، وهي صعوبة يبدو أن سانت اكزوبري قد توصَّل إلى حلها في «القلعة» بتفوق. بالفعل، ففي «أرض الرجال» - رائعته - استنفد كل الوسائل القصصية المؤيدة للأفكار الأخلاقية على مستوى رفيع. وفي «طيار الحرب» نجد سانت اكزوبري الأفضل الذي يرى الواقع ويدرك التجربة المباشرة، لكن الانفعال يتغلب دائماً على الفكرة، ولنعرف ذلك دون أن نقلل من إنتاجية الكتاب، فالوطنية التي تحلىً بها المدافع لا تحمل اليوم القوة نفسها التي كانت منذ عشرين سنة. إنما من المستغرب الاستنتاج رغم المظاهر، ان سانت اكزوبري يبدو كأنه ليس هو نفسه عندما يحدثنا عن مهنة الطيار والمخاطر التي يتعرَّض لها وظروف العظمة التي يقدمها للناس الذين، بدون الطائرة، لا يكونون ربما سوى أفراد متواضعين. فقد تأثر بالبيئة التي يعيش فيها، بيئة تمر فيها أفعال البطولة بهدوء. أيخاف من الأحكام غير الملائمة أو الأفكار السيئة الطبع عند رفاقه الذين

يرون فيه الأديب أكثر من الطيار؟ ينظر بإعجاب إلى رفاق المعركة ويتمنى أن يكون متساوياً معهم. إذا كان من المادة نفسها التي تكونهم فهو ليس من العرق نفسه. هذا الشعور بالتباين - في استخدام تعبير لاندره جيد (Gidienne) يزعجه ويحزنه. كما أنه كان سعيداً بأن ينادي: «أنا فويوميه، أنا من غافوال، أنا من هوشيدي، أنا من الفريق ٢/٣٣..»[1] مكافأة رائعة تعادل بحد ذاتها كل المخصصات الأدبية! هناك الحرب فالعمل ليس مجاناً والصراع مشترك وكل فرد معني بشكل أو بآخر بالأحداث. أدرك سانت اكزوبري أنه سيكون جندياً كالآخرين. لكنه تغير واقعياً.

هذا العزم على نسيان الذات، مع المحافظة على بعض الحضور الشخصي، يَظهر بوضوح في «أرض الرجال» و«طيار الحرب» و«رسالة الى رهينة». نستطيع القول ان سانت اكزوبري يعيش أسطورة الإنسان، شبيه تماما بالقصص التي يحياها الأطفال وتكون من اختراعهم. لكن هذه الأسطورة بالنسبة إليه، يجب أن تكون مقدسة ويجب أن تؤسّس على معطيات حقيقية. تذهله الحياة ولكنه استمال للإعجاب بالحياة، وقد أدّى به تبادل عجيب إلى إخصاب عالم قاحل. وبنتيجة قوة التبديل هذه حلّ محله فرد من الناس. فرجل العمل قد اضمحلّ أمام رجل

(١) طيار الحرب، ص١٩٠.

المذهب (يكمن مذهبه في احترام الحياة التي هي تنظيم وخلق).
وهكذا فسانت اكزوبري «أرض الرجال» أصبح سانت اكزوبري «القلعة»،ما يستخلصه هذا من التجربة جعل منه الآخر مؤسسة مبنية على الاستبداد والتعسف. ما كان انفعالاً تحوّل إلى ورع.

نشعر في «القلعة» أن سانت اكزوبري قد وهبنا كل كيانه دون انقطاع، وكأنه يتوقع من القارئ ثقة وفهمًا مطلقين. لا يشكك أبداً برأي رفاقه. أخيراً يمكنه أن يكون ذاته كما كان يحلم بالمخلوق اليافع.

يعتبر كتاب «القلعة» الإنتاج الأفضل من كل مؤلفاته «فالغلاف» هو أثمن من «الجواهر» التي يحتويها والذي لم يكن له قيمة بدونها. يجب المباشرة بالقراءة كما لو أننا نقرأ شعراً طويلاً من توراة حديثة العهد، لا يستولي عليك هذا الكتاب بل يترسخ في ذهنك. ففي كل صفحة نتتبع تطور تأليف الكتاب. وعما قليل عندما نتعوّد على التشنجات والانقباضات والاسترخاء والتمدد التي تعذّب أو تهدّئ هذا الجهاز العضلي الذي يكتب الجملة؛ تتم مشاركة مباشرة مع التمزق الداخلي البطيء الذي يسبق ولادة الإنتاج. إن الخمسين صفحة الأولى تكون مضطربة لكن الجهد المتيقظ الذي تتطلبه يشكل تمريناً رائعاً للفكرة. بينما الخمسماية صفحة الباقية تقرأ عندئذ بسهولة. وفائدة «القلعة» تصبح جذابة شيئاً فشيئاً. كي نشارك فيما يراه سانت اكزوبري

(وهذا لا نستطيعه إلا بعد الدخول إلى كتابه المطبوع بعد وفاته) من الضروري الاعتقاد، مثله بحقيقة الشعر.

هل سانت اكزوبري كاتب كبير؟

إذا لم يكن الأدب مهنته، فعنده على الأقل تطلعات أدبية صادقة، إنه يكره كل ما هو خطأ أو كذب أو وهم وكل ما هو غير نافع في كتب أشهر كتّاب النثر الذين يبيعون أفكاراً وأحاسيس مثل الباعة المألوفين. إلا أنه كان متحمساً جداً لميزة أسلوبهم. فهو لا يريد أن يكون أدبه تسلية أو تجارة. ينطلق من المبدأ القائل: لكي نكتب يجب أن يكون عندنا شيء نقوله إنما نقوله بشكل جيد. إلاّ أنه ممنوع عليه العدول كلياً عن الآثار الأدبية والاكتشافات اللفظية، عن البحث عن الصور والتعابير الأكثر صدقاً وهذه المغناطيسية الخاصة بالكلمات التي توحي أكثر بما تسمّي.

ففي «أرض الرجال» و«القلعة» نشعر غالباً أنه يثابر على جمع الجمل الموسيقية المتناسقة بغية أن يكون إيقاع المراحل يتناسب مع حركة الفكر وأن وصف مشهد أو وجه يولد شعوراً فنياً مشابهاً للشعور الذي أحس به عند تأمله لهذا المشهد أو هذا الوجه. هكذا: «.. انتظر الفجر، تقدّم الهضاب الذهبية إلى

القمر، منحدرها المضيء، وسفوح من الظل تصعد إلى خطوط توزيع النور.»[1]

«أحب أن يصبح الوجه الفتي مهدداً بالشيخوخة؛ والابتسامة أن تحولها كلمة مني إلى دموع»[2]. دأب أيضاً كل من راسين وشاتوبريان وستاندال وجيد وڤاليري على هذا المنوال.

يؤخذ على إنشائه بأنه رفيع للغاية. ألاّ تتذمّر منه لأنه يوقفنا دائماً عن التنفس؟ إذا مالَ إلى علم البيان لماذا نشفّه ضعفه هذا، لأنه أتاح له بعض النجاحات الخطابية التي رغب فيها شعراء معاصرون كثر؟ لكن ما يبهر عند سانت اكزوبري هذا التحمّس نحو البشر الذي لم تستطع إيقافه أية خيبة أمل، فهو يعلمنا هذه الدقة وهذا الكلام المفتوح مبالغاً بالرموز، ومستمراً بالعمل، إن هذه التجربة هذه المحاولة لخلق الله وسط الحياة ذاتها وهذه الحاجة لصهر النفوس وإعادة نضارتها الأولى هي غايته.

وحقيقة القول انه استخدم الأدب كوسيلة للبحث عن أفضل طريقة يتم فيها استخدامه. والأداة الموجودة بين يديه تحمل فضائل الخاتم السحري. لا شكّ أنه أجهد نفسه في بعض

(١) أرض الرجال، ص٧٣.

(٢) القلعة، ص٢٧٤.

الجمل ولكن على طريقة الفلاح الذي يضغط على محراثه عندما تقاوم التربة السكة.

إذا كان سانت اكزوبري أديباً كبيراً بلا ريب، فهو قبل كل شيء أديب رائع.

مركز سانت اكزوبري

«يتحدد مركز الأديب في عصره»

يُطلب من الأديب في عصرنا أن تتطابق حياته مع مؤلفاته وإلاّ يكون بينهما أي التباس. كما يُطلب منه وعي مسؤوليته وقبوله بأن يكون رجلاً شعبياً. ما أن يظهر كتابه في المكتبة حتى لا يبقى ملكه: فهو يأخذ موضعاً أو معتقداً أو تقريباً «حالة معينة»، والتأثير الذي يحدثه في الضغط على معاصريه يكون ربما فاصلاً بالنسبة لعصره أكثر من الأحداث التي يتميز بها. مهما كان تفكيره فهو يتقلد دوراً أساسياً؛ إنه إحدى القوى التي تؤثر في ميكانيزمات الأمة. بهذا العنوان يكون لنا الحق بالحكم على قيمة أفكاره.

يُعتبر سانت اكزوبري عند ت.آ.لورنس وَ أ.مالرو النموذج الحقيقي للكاتب الذي نؤكد أنه رَهَنَ جزءاً كبيراً من حياته لإنتاجه الأدبي. ولقد قيل ونُشر: إن عند سانت اكزوبري لا يمكن فصل حياته عن إنتاجه، فالواحدة منهما ليست سوى انتقال شعري للأخرى. هل هذا صحيح فعلاً؟ رغم الظواهر، لا يبدو أن التدريب الذي استخلصه من تجاربه كرجل أعمال

يتوافق دائمًا مع المبادئ التي أسّس عليها علم الأخلاق. لقد كان مستعداً لأن يدفع من حياته ثمن الأفكار التي قدمها، ولا أحد يعترضه. لكن إذا عاش حسب أفكاره نراه أقل تأكيداً في بعض الأحيان. يكفي أن نعود إلى غاراته - اثنتان منها انتهتا بالفشل - وكذلك الطريقة التي مات فيها، لتولد الشك فينا.

يكرر لنا في كتبه أن الواجب مقدّس وأن الحرية لا تتواجد إلّا بتقبل الواجب وأن الشجاعة لا تكمن في كره الموت ولا في تذوق المجاذفة، بل في الحاجة إلى خلق هدف مشترك. يطير فوق رياح السموم لإقامة صلة بين باريس وسايغون من جهة وبين نيويورك وأرض النار من جهة أخرى! لماذا هذه الغارات؟ لمجرّد انتصار بسيط؟ أم أن هناك نشوة في الطيران تشبه نشوة المعركة؟ أم دفاعاً عن وجود الطائرة؟ أو دفاعاً عن الكثيرين الذين قضوا في سبيل هذه الأهداف؟ أين هو الهدف المشترك؟ لنتأمل الإقدام والحماس واللامبالاة عند الطيار، لكن ماذا نقول عن الرجل الذي جازف بحياته مجاناً؟ نعارض هنا سانت اكزوبري الذي يتمنى إحياء السماء وخلق طرق اتصال جديدة الخ.. المشروع هنا فردي ولا يستفيد منه التجمع إلّا عرضياً. بينما يأخذ من المآثر الرياضية أكثر مما يأخذ من عمل الفلاح أو العامل أو المحارب. فالمزيد من الفتوة يثير الجماهير ولكن ذلك عكس القوانين التي رسمها الرئيس في القلعة.

بينما بالنسبة لنهايته البطولية - بعيداً عنا، تقلّص فكرة الإرادة والنبل والجمال - من الممكن أن يكون قد أثارها جزئياً. إنّ الطيران بعمره (٤٤ سنة) على ارتفاع عشرة آلاف متر وبسرعة تفوق السبعماية كيلومتر بالساعة، يؤدي إلى السير بسرعة نحو الانتحار. يتمنى بلوغ حقه بالكلام وربما حقه بالموت، حسب بعض الوثائق والتعليمات الجديرة بالصدق تحطمت طائرته في ٣١ تموز ١٩٤٤، بواسطة (Foke-Wulf 190) قرب الشاطئ الكورسيكي. لكن، حول هذه النقطة لم يُعثر على أي يقين مطلق. مهما كانت أسباب موته (حادث، ضعف طبيعي، غارة من طيارة ألمانية. . .) كل ما يهم هو الطريقة كما ردّد دائمًا. كان عليه أن يعرف تماماً أن جسمه لا يستطيع المقاومة طويلاً للجهود التي طلبت منه. وقد سعى كل رؤسائه إلى منعه من القيام بخدمة فعلية في الطيران، لكن سانت اكزوبري، بفضل إرادته التي لا تتزعزع ودأبه الغريب ورباطة الجأش عند رفاقه الأمينين نجح في الحصول على إذن بممارسة مهمات استكشاف فوق المقاطعات التي يحتلها العدو. ما هي واجباته؟ المجازفة بحياته وخسارة طائرته؟ أو أن يطيع أوامر رؤسائه الذين سعوا إلى حمايته؟ هنا أيضاً تصرّف من تلقاء نفسه، في حين أنه كان يعلن في كتبه بأننا لا نمتلك أنفسنا. فالبطل هو الذي يظهر لغته للمفكر. والبطل هو الذي يعتقد أن واجبه يكمن في خدمة وطنه ضد كل شيء - والرئيس الحقيقي هو فرنسا - ولهذا

السبب بالذات كانت تضحيته بدون فائدة. فالغريب بالأمر هو أن سانت اكزوبري عاش التناقضات عندما كان الأمر متعلقاً بشخصه كما انه توقع دائماً أن يكون منسجماً مع مبادئه. لا يؤخذ عليه تمسكٌ في موقفه الداخلي. يريد أن تطبق مبادئه على كل الناس وأن تؤسس على المعقول والممكن. كان يبحث دائماً عن المناسبة التي تحقق فعالية هذه المبادئ. إلاّ أنه كان يحتفظ لنفسه بالمهمة المستحيلة ولم يكن تصرفه الأخير سوى برهان بالإضافة إلى غيره من البراهين يظهر فيها رغبته في الذهاب إلى أبعد من الممكن. فلو تصرّف شخص آخر كما تصرّف هو لوجه إليه اللوم متمسكاً بهذه النظرية: أليس كل منا مسؤول عن الجميع وعليه أن يحترم حياته الخاصة؟ سيحتج بدون شك قائلاً: «لا يتدخل المعقول هنا مطلقاً»[1]. في الاتجاه نفسه يمكن أن نتوقع أن الصلات التي تربط سانت اكزوبري بمؤلفاته ليست عقلانية لكنها عاطفية. وهذا ما يفسّر «الاختلالات» الحقيقية التي نلاحظها تارة بين حياته ومؤلفاته؟

هل سانت اكزوبري من عصره؟

في دراسة كتبت سنة ١٩٣٠، اختصر مارسيل أرلاند برؤية عميقة أمنيات كتّاب الجيل الذي ينتمي إليه سانت اكزوبري قال بشكل خاص: «لا شيء يبدو لي مستحباً في هذه اللحظة سوى التجدّد في صحة العبارة والتجدد في صدق الفكرة

(١) المفكرات، ص٨٥.

والتوازن الحساس بين القلب والروح والإرادة على عدم التصاعد إلاّ إذا تمَّ الانصياع الكلي»[1] فقد حقق سانت اكزوبري أمنيات مارسيل أرلاند؛ لكنه أضاف على كل هذه المميزات الأدبية والأخلاقية واحدة: تكلم كما لم يتكلم أحد غيره عن اكتشاف مميز في القرن العشرين وهو «الطائرة». نتطلع بنظرة سيئة إلى الأديب الذي لا يستخدم، في إطار تجاربه وتحاليله، الوسائل التي يضعها التقدم بتصرفه. طبعاً إذا كان نجاح سانت اكزوبري يعود بجزء منه إلى قصص المغامرات - حيث تشكل الطائرة - وما ترمز إليه - العنصر الأساسي، فلا يعود الفضل إلى هذه الطائرة في جعله أحد أفضل الكتاب خلال الثلاثين سنة الأخيرة. لكن الطائرة أتاحت له رؤية الأشياء من زاوية جديدة وذلك لكونها قدمت إليه فرحة رؤية العالم من فوق، كما لو أن الأرض لا تتميز عن بقية الكواكب. فقد ساعدته الطائرة في الصعود للإنسان نحو الله كما قال في كتاب «القلعة». فالصعوبة تكمن في معرفة استخدامها وجعلها أداة خلق. فبأية سلطة توصل إلى ذلك.

أعطى سانت اكزوبري رأيه في عصره. فهو يكرهه بكل قواه. (في رسالته إلى الجنرال س- التي ستتبع هذه الدراسة

(١) محاولات جديدة للنقد، (جاليمار ١٩٥٢)، ص٣٦.

وسنرى فيها الأسباب التي استند إليها كي يثبت حقده)، وقد ثار ضد غريزة التجمع التي يخضع لها الناس. يقبل بأن تكون الفاشية والنازية والشيوعية كلها أبواب مفتوحة أمام من هو بحاجة إلى إيمان وكل الذين يبحثون عن مقياس مشترك خارج الذات. روحانية مؤسسة على النظام والعدالة (أي منها؟) أليست مرغوبة دائمًا؟ كان ضد الفرد وضد الجماعة لكنه مع النوع. إنه يعرف جدارة المحارب الألماني والثائر الاسباني والمقاتل الفاشي أو الشيوعي. قد ينكر طريقتهم لكنه يتأسف بمرارة «على عدم الاعتراف غير المصدّق لهؤلاء بأولئك»[1].

كان عصره عصر التقسيمات وقد يكون هذا مصير كل العصور. هل ولدت الناس للاقتتال ولافتراس بعضها البعض؟ مسألة خالدة يرغب كل فرد الإجابة عليها بالسلب. إلاّ أنه بالنسبة إليه لا يوجد إلاّ مسألة واحدة: «اكتشاف حياة للروح.. الشيء الوحيد الذي يشبع الإنسان»[2]. سياسياً يبدو سانت اكزوبري أنه يميل نحو اشتراكية مسيحية: كان ضد البرجوازيين الرأسماليين لكنه كان ضد الدولة التي تدبر رأسمال الجماعة. لم يكن من جهة اليسار ولا من جهة اليمين. فقد حاول تبديل

---

(١) المفكرات، ص٨٥.

(٢) رسالة إلى الجنرال س.

الاتجاهين إلى اتجاه آخر يبدو له وكأنه أسمى، مع المحافظة على كل ما هو شرعي فيهما.

حول هذا الموضوع لم يترك لنا سانت اكزوبري سوى بعض الهوامش خلال العمل أو بعض التأملات التي جمعها ناشر كتبه في كتاب تحت عنوان «المفكرات». مهما كانت ثاقبة هذه التأملات التي تتناول مواضيع متنوعة للغاية (من القصور الحراري إلى الضمانات الإجتماعية مروراً بالتحليل النفسي وبالشيوعية) كلها لا توجهنا إلى الاستنتاج الدقيق حول آرائه السياسية. في الواقع بقي سانت اكزوبري دائمًا خارج السياسة بالمعنى الصحيح، ومن المناسب احترام هذا الانفصال عنده. كما قال بيار ديفردي «الإنسان المتحرر يتيح للشاعر الارتباط».

اتخذ سانت اكزوبري موقفاً من النزعة الإنسانية الحديثة يختلف عن موقف مالرو. أعلن مالرو أن النزعة الإنسانية لم تتحقق. «ما فعلته لا يفعله أي حيوان»[1]، بينما يدعي مؤلف «أرض الرجال» أن هذه الجملة تعينّ مركز الانسان. لكن، بالنسبة لسانت اكزوبري يرى أن مالرو قبل الحرب كان يبحث عن الاستهواء. بينما هو يسعى للوصول إلى الوعي باكتشاف كل ما هو مستمر وشامل في الحياة. ففي عصر يرفض فيه المثقفون والموجهون التقاليد المسيحية بحجة أنها كانت في طليعة زمنهم.

(١) الإبداع الفني، ص٢١٦

ويستوعبون أنظمة حديثة مبنية على الديماغوجية لتحل محل الدين، استطاع سانت اكزوبري أن يبرهن كيف أن الحضارة التي ورثت القيم المسيحية يمكنها الصمود في وجه التفكك الذي أوصلها إليه بعض المفكرين. بالفعل هل هناك أكثر تنافياً مع العقل أن يذبح كاثوليكي فرنسي كاثوليكياً إيطالياً؟ وهل نحن فرنسيون أولاً أم كاثوليك؟ روسيون أم شيوعيون؟ ألمان أم بشر؟. «الوطن هو تراث فكري» يجيب سانت اكزوبري؛ فقد يحدث ألّا تعرف أمة الاحتفاظ بتراثها فتستولي عليه جاراتها. وتكون الحرب والهزيمة. لكن الهزيمة عمل جيد لأنها توقظ الشعب (تلك هي النتيجة المستخلصة من «طيار الحرب». ولهذا السبب ينصح الرئيس في «القلعة» محاربيه بمحبة أعدائهم، لأنه بالحرب يكشفهم أمام أنفسهم. لا نخطئ أبداً. إذا تركنا الشعب يستطيع إيجاد ظروف للعظمة في الحرب، فسانت اكزوبري لم يفكر أبداً بالمطالبة بالروح الحربية. كان يهزأ من بعض الجنرالات الذين يرون في الوطنية نوعاً من روح الفريق. لكن علينا ألّا ننسى أن ما يُشغله بدرجة عالية هو الوحدة الروحية للناس على الأرض، هذا المسكن الرائع الذي جعله الانسان غير قابل للسكن بسبب عدم التربية الروحية.

استطاع سانت اكزوبري كوريث لپاسكال ونيتشه أن يتجاوز مسيحية الأول وإلحاد الثاني. مقابل صيغة نيتشه «لقد مات الاله» يعرض صيغة أخرى «الاله هو صمت». إذا كان

باسكال قد أثبت أن قوة الإنسان في إمكانيته على تجاوز ضعفه.
فقد انطلق من هذين المبدأين وهاجم المشاكل المعاصرة التي تطرح على بساط البحث عظمة الإنسان، وعبوديته، وكل المشاكل التي تؤدي إلى هذه المسألة: كيف نعيش؟ وهذه تستدعي غيرها من المشاكل: ما هي أفضل وأصح طريقة للعيش؟ لكن من يطرح هذه المشكلة؟ المثقف! أجاب سانت اكزوبري انه رجل أعمال. تصرفيوا في المجال الخاص بكم وكونوا ملتزمين بالقيام بوظيفتكم على أفضل وجه، وهكذا يتخذ مستوى حياتكم شكلاً. لكن يلاحظ أن هذه النصيحة تتحول إلى نظام وأن مثل هذا النظام لا يمكن أن يتم تقبله دون تدخل الرئيس. من هنا ضرورة تأسيس روحانية تتضمن أخلاقية تنظيمية زعمور شخص عنده الخبرة اللازمة كي يعلّم الآخرين على العيش ويؤسس نظام الرتب. تتيح الحروب والثورات ومصائب الأمم لهؤلاء الذين يفكرون أن يعيشوا الواقع بلوغ السلطة وفرض قوانينهم. سياسياً الحق للأقوى دائماً. إلاّ أننا إذا تتبعنا سانت اكزوبري تراه يقول ان أية سياسة لا يكون لها معنى إلاّ بقدر ما تخدم الوضوح الروحي، عندئذ أي رئيس يتكفل بدور الظالم الجيد؟ فالرئيس هو بحاجة للآخرين لكن إذا لم يتمكن من إكفاء ذاته، فإلى أي مدى يكون بإمكانه اكتشاف الوضوح الروحي؟ فالآخرون هم الذين يهيئون الأرض الصالحة التي يؤسس عليها هذا الوضوح. هكذا بالنسبة لسانت

اكزوبري، على كل إنسان أن يتمركز في عمل مهما كانت طبيعته. تتعلق الحرية التي يطالبون بها بموقفهم المسبق. وبتعابير أخرى يصبحون مجبرين على الاختيار وعلى الولادة من جديد. في حال جرى هذا الاختيار، يظهر الرئيس مع استبداده ويصبح حاجة طبيعية، يمارس عندئذ سياسة الانسان للانسان ويصبح شعاره، حب وأمانة.

يكرّس سانت اكزوبري إذاً فضائل الحب التي تفتح الطريق أمام الإيمان، وفضائل الذكاء التي تؤدي إلى الشك. فالحب يعني الانجذاب أي خلق مجال قوي. فقد اقترح سانت اكزوبري تربية الرجال على كمالات الحب. وهكذا توصل إلى بناء سلم من القيم مؤسس على التضحية والتبديل، وكأن كلامنا يكون متهيئاً للوصول إلى الحقيقة. المهم أن تكون هذه الحقيقة التي أوجدها حبنا مشتركة بين الجميع. لهذا السبب كان من الضروري تثبيت هدف خارج الذات وإيجاد وجه نحبه. من هنا كان البحث في كتبه عن تطابق بين الإنسان والله يقابله تطابق في الحياة والوعي الذي يمنح المخلوق صفة الوجود.

يعتبر فكر سانت اكزوبري فلسفياً بالتأكيد، لكنه خضع لدقة الشكل الشعري الذي يفلت من كل نظام ويشرف على هذه العملية الصعبة التي تكمن في جمع الحياة والمعرفة في فعل خلقٍ واحد.

خطر في بال سانت اكزوبري العالم الحديث، بعكس بقية الكتّاب المعاصرين الذين عاشوه أو عانوه. بهذه الصفة بالذات ارتفع إلى المستوى العقلي للفلاسفة المشهورين لهذا النصف من الجيل، كما أنه يدخل بالسهولة نفسها كالشعراء الكبار في هذا الكون حيث يطغى المحسوس على المعقول.

ففي محاضرة تحمل عنوان «من النفوذ إلى الأدب» التي ألقاها في مركز علم الجمال الحر في بروكسيل سنة ١٩٠٠ أعلن جيد قائلاً:

«لا نعرف اليوم مطلقاً من أي نبع نشرب - نرى الكثير من أنواع المياه الصحية وهذا يريد الشرب من هنا وآخر يريد الشرب من هناك.

وهكذا أيضاً، لا يتفجّر أي نبع واحد كبير، لكن المياه تجري من كل الجهات بلا اندفاع ولا تفجّر ومن ثم تبقى على الأرض راكدة - وإن مظهر الأرض الأدبي اليوم يشبه تماماً مظهر المستنقع»(١).

ربما يكون كل من جيد وڤاليري وبروست وكلوديل قد جففوا المستنقع الذي تكلّم عنه مؤلف «قوت الأرض» وقد يكون أيضاً بسبب كثرة تجفيف الأرض الأدبية حوّلها ورثتها إلى صحراء

(١) ثوب النبلاء، ص٢٥-٢٦. فرنسا ١٩٠٣.

قاحلة. ولكن يبدو إنتاج سانت اكزوبري مثل واحة وضعت على ملتقى الميادين التي يجتازها وسيجتازها غزاة الروح المسافرين والمرسلين والمهاجرين إليه.

* * *

يشكر المؤلف والناشر السيدة اكزوبري، ويتقدمون منها بالشكر والامتنان الموقر لكونها سمحت بكل سرور بنشر الرسالة إلى الجنرال س.

رسالة انطوان سانت أكزوبري الى الجنرال س.[1]

أقوم ببعض رحلات طيران على متن ب٣٨، إنها آلة جميلة. كنت سعيداً جداً لو أن هذه الهدية كانت بتصرفي في العشرينات من عمري. أتحسّس بكل أسى لكوني اليوم في الثالثة والأربعين، وبعد القيام بـ ٦٥٠٠ ساعة طيران تحت كل سماوات العالم، لا أجد لذة كبيرة في هذه اللعبة. ليست سوى أداة نقل-والآن أداة حرب. فإذا خضعت إلى سرعة معينة وإلى علو معين في عمرٍ أبوي لهذه المهنة، ذلك كي لا أرفض شيئاً من عوائق جيلي إلا على أمل الحصول على تعويضات عن الماضي.

ربما يكون ذلك محزناً وربما لا يكون. بدون شك كنت على خطأ عندما كان لي من العمر عشرون سنة، ففي تشرين سنة ١٩٤٠ كنت عائداً من أفريقيا الشمالية حيث هاجر الفريق ٢/٣٣، كانت سيارتي قد أدخلت معطلة أحد المرائب القديمة فاكتشفت العربة والحصان، وبواسطتها توصلت إلى التعرف إلى

(١) نشرت في الفيغارو الأدبية ١٠نيسان ١٩٤٨.

عشب الطرقات، والخراف والزيتون. أشجار الزيتون هذه لها دور آخر غير دور مصارعة سرعة ١٣٠كلم في الساعة وراء الزجاجات، إنها تظهر في نمطها الحقيقي الذي ينحصر في فبركة حبوب الزيتون بهدوء. لا ينحصر هدف الخراف في عملية هبوط المعدل الوسطي. يعودون أحياء. ويفرزون البعر فعلاً ويصنعون الصوف الحقيقي. ويأخذ العشب معنى لأنهم يرعونه.

أشعر بنفسي انني أتمنى العيش في هذه الزاوية من العالم، حيث يبدو الغبار معطراً بالسعادة (أنا غير عادل، إنها موجودة في اليونان كما هي موجودة في البروفنس). يبدو لي انني كنت غبياً طوال حياتي...

كل ذلك كي أوضح لكم أن هذا الوجود الجماعي في قلب قاعدة أميركية، هذه الوجبات الطعامية المشحونة والتي تتم وقوفاً خلال عشر دقائق، هذا التأرجح بين الأمكنة الواحدة حول قوة ٦٠٠حصان بخاري في نوع من البناء المجرّد، حيث نتكوّم كل ثلاثة في غرفة، هذه الصحراء البشرية المخيفة لا يوجد فيها شيء يداعب فؤادي. هذا أيضاً مثله مثل المهمات غير المفيدة واليائسة أو كالمهمات المقطوع الأمل منها بالعودة في حزيران ١٩٤٠. إنه لمرضٌ يجب تجاوزه. إنني مريض في سبيل زمن مجهول. لكنني لا أعرف الحقيقة التي لا تجعلني مريضاً. هذا كل شيء. إنني حزين جداً اليوم وحزين في العمق. أنا

حزين من أجل جيلي لأنه فارغ من أية مادة إنسانية. هذا الجيل الذي لا يعرف إلا البار والرياضيات واليوغاتي كشكل للحياة الفكرية، يجد نفسه اليوم ضمن عمل جماعي صرف لا يحمل أي لون آخر. لا يمكننا ملاحظة ذلك. خذ الظاهرة الحربية منذ مئة سنة. خذ بعين الاعتبار كم كانت تتضافر الجهود لتخدم الحياة الفكرية والسياسية أو بكل بساطة الانسانية عند الانسان. كم نحن جافون اليوم، أكثر من القرميد. ونضحك لهذه التفاهات. الألبسة الرسمية والاعلام والأناشيد والموسيقى والانتصارات (لا يوجد انتصارات اليوم، لا يوجد شيء عنده قوة أوسترليتز. ليس هناك سوى عمليات هضم بطيئة وسريعة. كل شعر غنائي يعطي صدى هزلياً والناس ترفض أن تصبح واعية لحياة فكرية معينة. بل يقومون بأمانة بنوع من العمل الرتيب. كما قالت الفتوة الأميركية: نتقبل هذا «العمل المأجور العقوق» بأمانة ويسعى المجمع المقدّس لنشر الايمان في العالم كله بدون جدوى لا بل بيأس. ليس مرضه محصوراً في غياب المواهب الخاصة إنما من الموانع التي وضعت له وذلك باستناده إلى الخرافات الكبيرة العذبة دون أن تبدو متحذلقة. من المأساة اليونانية هبطت الانسانية حتى مسرح م. لويس ڤرنيل (لا يمكن الذهاب أبعد من ذلك). عصر العلنية، عصر نظام بادو والنظام الكلياني[1] ونظام الجيوش بلا أبواق ولا أعلام ولا قداس للموتى.

---

(١) نظام يحكم فيه حزب واحد فقط وبدون معارضة-المترجم.

أكره عصري بكل قواي لأن الانسان يموت فيه من العطش.

إيه! أيها الجنرال، لا يوجد في العالم إلا مشكلة واحدة: أن توهب الناس معنى روحانياً وقلقاً روحانياً. أمطر عليهم شيئاً ما يشبه نشيداً غريغورياً. إذا كنت مؤمناً من المؤكد أن يكون قد مرَّ عصر العمل المأجور هذا، «الضروري والعقوق»، فلا يمكن أن أتحمل كما تحمَّل سولاسم، لا يمكن أن نحيا بالبرادات والسياسة وموازنة الكلمات المقاطعة، ألا ترى ذلك. لا يمكننا مطلقاً أن نحيا بدون شعر ولا لون ولا حب. حسبنا أن نستمع إلى نشيد فردي من القرن الخامس عشر ونحن نجتاز المنحدر الهابط. لم يبق شيء سوى صوت الانسان الآلي في الإذاعة (سامحني). ملياران من الناس لا تسمع إلا صوت الإنسان الآلي ولا تفهم إلّا من الانسان الآلي وتحولوا جميعهم إلى إنسان آلي. كل أنواع الضجيج الأخيرة التي حدثت خلال ثلاثين عاماً لم يكن لها سوى مصدرين: مأزق نظام القرن التاسع عشر الاقتصادي واليأس الروحي: لماذا اتبع مرموز مذهب الدادية للكولونيل[1] إذا لم يكن متعطشاً لذلك؟ لماذا روسيا؟ لماذا إسبانيا؟ قام الناس بتجربة القيم الديكارتية لأنهم لم ينجحوا خارج علوم الطبيعة. ليس هناك سوى مشكلة واحدة: إعادة اكتشاف وجود حياة روحية

---

(١) الدادية مذهب في الفن والأدب انتشر في سويسرا وفرنسا حوالي ١٩١٦-١٩٢٠ وتميز بالتأكيد على حرية الشكل تخلصاً من القيود التقليدية-المترجم.

أسمى بكثير من الذكاء وهي الوحيدة التي تشبع الانسان. يتجاوز هذا المفهوم مشكلة الحياة الدينية التي تعتبر شكلاً من أشكالها (رغم أن حياة الروح تؤدي إلى الحياة الأخرى بشكل ضروري). تبدأ حياة الروح عندما يدرك شخص «واحد» وعيه بشكل أسمى من إدراكه للمواد التي تركبه. فحب البيت مثلاً-هذا الحب الذي ليس له وجود في الولايات المتحدة-يشكل نوعاً من حياة الروح. والعيد في القرية وعبادة الأصوات (أذكر ذلك لأنه قد قتل منذ وصولي إلى هنا حوالي ثلاثة مظليين ولكنهم أُخفيوا: وقد انتهوا من الخدمة). هذا هو العصر، ليس ذلك في أميركا فقط: فالانسان لم يعد له معنى.

يجب التحدث حتماً إلى الناس.

ماذا يفيد تاريخ الحرب إذا أصبح عندنا لمدة مئة سنة صراع ثوزي؟ عندما تنحل المشكلة الألمانية تُطرح عند ذلك كل المشاكل الحقيقية. من المحتمل أن تكفي المضاربة على المخزون الأميركي للخروج من هذه الحرب وإلهاء الناس عن همومهم الحقيقية كما حدث سنة ١٩١٩. فبانعدام التيار الروحاني القوي ينمو كالفطر ست وثلاثون ملة وكل ملة تبدأ بالتقسيم الواحدة تلو الأخرى. فالماركسية نفسها التي أصبحت بالية، ستتقسَّم إلى عدة ماركسيات جديدة متناقضة، وقد لوحظ ذلك في إسبانيا، إلا إذا لم يركزنا قيصر فرنسي في معسكر لتجمع اشتراكي متجدد حتى الأبد.

إيه! ما هذا المساء الغريب، وما هذا الطقس الغريب، أرى من غرفتي نوافذ هذه المنازل الجامدة تضاء. اسمع محطات الراديو المختلفة تبث موسيقى شعر رديء لهذا الجمهور العاطل عن العمل الآتي من وراء البحار والذي لا يدرك معنى الحنين إلى الوطن.

يمكن الخلط بين هذا القبول الاستسلامي وروح التضحية والمروءة. يقع هنا خطأ كبير، إن صلات الحب التي تربط انسان اليوم بغيره كما تربطه بالأشياء هي نوعاً ما متوترة وكثيفة حتى أن الانسان لا يحس أبداً بالغربة كما في الماضي، إنها الكلمة المخيفة في هذه القصة اليهودية «سنذهب إذاً هنالك؟ كم تكون بعيداً!- بعيداً عن أي مكان؟» هذا البعد الذي يخلقونه فيه ليس سوى مجموعة عادات. في عصر الطلاق هذا، يتم الطلاق بسهولة أكثر من الطلاق عن الأشياء. فالبرادات قابلة للتبادل، والمنازل أيضاً إذا لم تكن سوى تجمع. والمرأة؟ والمذهب؟ والحزب؟ لا يمكننا أبداً أن نكون غير أمينين: فعلى ماذا نكون غير أمينين؟. وبعيداً عن ماذا؟ وغير أمين على ماذا؟ إنها صحراء الانسان.

ينبغي أن يصبح أعضاء هذا التجمع عقلاء وهادئين. أعود للتفكير بالبحارة البريطانيين القدامى الذين أبحروا إلى ماجلان و«بالفرقة الأجنبية» المتروكة في مدينة وبهذه الروابط المعقدة برغبات حادة وبحنين إلى الوطن لا يحتمل، التي كونتها

الذكور الذين أُدخلوا بشكل قاسٍ. يلزمهم، دائمًا للمحافظة عليهم عساكر أقوياء أو مبادئ صلبة أو إيمان خارق. لكن ولا فريق من هؤلاء لا يجوز أن يقلل من احترام حارسة الاوز. يتم الاحتفاظ اليوم بهدوء الانسان حسب البيئة إما بالبيلوت أو بالبريدج. نحن اليوم بكل غرابة مخصيين... وهكذا نقول إننا أحرار. لقد قطعت أيدينا وأرجلنا ومن ثم قيل لنا لكم الحرية في المشي. إنني أكره هذا العصر حيث أصبح الانسان حيواناً لطيفاً مهذباً وهادئاً تحت تأثير كليانية عالمية. أرغمونا على ذلك في سبيل تقدم أخلاقي. ما أكره في الماركسية هذه الكليانية وما تؤدي إليه. فقد تحدد الانسان فيها كمنتج والمشكلة الأساسية هي مشكلة التوزيع كما يحدث في المزارع النموذجية. ما أكره في النازية هذه الكليانية وما تتوقع حدوثه في جوهرها بالذات. يتم استعراض عمال الدوهر أمام ڤان غوخ وسيزان وكرومو. طبيعياً ينتخبون لمصلحة الكرومو. تلك هي حقيقة الشعب. تُسْجَن في معسكر تجمع مرشحو سيزان ومرشحو ڤان غوخ وكل الكبار غير الممتثلين، وهكذا تتم تغذية ألكرومو بالماشية الخاضعة. ولكن إلى أين ذاهبة الولايات المتحدة وإلى أين نذهب نحن أيضاً في عصر التوظيف العالمي؟ الانسان الآلي والانسان الهدام والانسان المتأرجح من العمل إلى سلسلة نظام بودو وإلى البيلوت. فالانسان المقصي عن كل سلطته الخلاقة والذي لا يستطيع اكتشاف رقعة ولا أغنية من تراث قريته العميق، فالانسان الذي

نغذيه بالثقافة المحضّرة وبالثقافة المعيارية كما نغذي الأبقار بالتبن، هو إنسان اليوم.

أعتقد أنه لم يمرّ ثلاثمائة سنة على كتابة «أميرة كلايف» أو الانحباس في دير مدى الحياة بسبب حب ضائع، كم كان الحب حاراً، أما اليوم فقد نجد أناساً يقتلون أنفسهم بأنفسهم. لكن ألم هؤلاء من رتبة كلْبْ الأسنان. هذا لا يطاق. وليس له علاقة بالحب. يعتبر حتماً المرحلة الأولى. لا أستطيع أن أتحمل فكرة رمي أجيال من الأطفال الفرنسيين في جوف المولوخ الالماني. فالتهديد وصل إلى جوهر ذاته. لكن عندما تتم نجاة الجوهر، تُطرح المشكلة الأساسية التي هي مشكلة زمننا. وهي تشكل بالذات معنى الانسان ولم يتم اقتراح جواب. أشعر اننا نسير نحو أزمنة تُعتبر أكثر أزمنة العالم اسوداداً.

لا يهمني أن أموت في الحرب. فماذا بقيّ مما أحببت؟ أتكلم عن العادات كما أتكلم عن المخلوقات والاداءات الفريدة من نوعها المستوحاة من الأضواء الروحية. من تناول الطعام في المزرعة البروفنسية تحت أشجار الزيتون وكذلك من «هنديل». أتحوّل حتى عن الأشياء العامرة. كل ما يفيد هو هذا التصفيق الأكيد للأشياء. فالحضارة هي ملك خفي لأنها لا تتناول الأشياء فحسب بل الصلات الخفية حيث ترتبط الواحدة منها بالأخرى بهذا الشكل وليس بغيره. عندنا الآت موسيقية كاملة موزعة

بسلسلة كبيرة ولكن أين هو الموسيقي؟ إذا ما قتلت في الحرب فأنا أهزأ من ذلك. أو إذا حصل لي نوبة كَلَبْ من مثل الطوربيدات الطائرة التي ليس لها أية علاقة مع الطيران أو مما يحدثون للطيار بين أزراره وعداداته نوعاً من رئيس محاسبة (فالطيران بحد ذاته هو نوع من ترتيب الصلة). لكن إذا عدت حياً من هذا «الانسان الآلي الضروري والعقوق» لا تُطرّح بالنسبة لي سوى مشكلة واحدة: ما استطاعتنا، ماذا يجب أن نقول للناس؟.

أعرف لماذا أروي لك كل ذلك، قبل كل شيء حتى أقوله لأحد، هذا لا يعني أن لي الحق بأن أرويه. يجب تسهيل السلام للآخرين وعدم عرقلة حل المشاكل. أما الآن فمن المفيد أن نقوم بمهمة رئيس محاسبة حول طائراتنا الحربية.

منذ أن بدأت بالكتابة هنا، أتى رفيقان وناما أمامي في الغرفة. يجب أن أنام أيضاً لأنني أعتقد أن الضوء يضايقهما (وهذا ينقصني أيضاً).

هذان الرفيقان هما رائعان بنوعيتهما، هذا هو الحق والشرف والنبل والأمانة. ولا أدري لماذا أحسُّ هكذا بنوع من الشفقة العاجزة عندما أنظر إليهما نائمين. إذا كانا يجهلان قلقهما الخاص فأنا أحس به تماماً. إنهما يمثلان الحق والشرف والنبل والأمانة نعم ولكنهما فقيران بشكل مخيف. إنهما بحاجة ماسة إلى

إله ـ أعذرني إذا كان هذا المصباح الكهربائي الذي سأطفئه قد منعك من النوم وثق بصداقتي.

انطوان دي سانت أكزوبري

الفهرس

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون، ساقية الجنزير، ت ٨٠٧٩٠٠/١

برقياً موكيالي، بيروت، ص.ب ٥٤٦٠-١١ بيروت